

أدب

من التاريخ السرى لنعمان عبد الحافظ

محمد مستجاب





المشرف العام
د. أحمد مجاهد

اللجنة العليا
أ. إبراهيم أصلان
د. أحمد زكريا الشلق
د. أحمد شوقى
أ. طلعت الشايب
أ. عبلة الروينى
أ. علاء خالد
أ. كمال رمزى
د. محمد بدوى
د. وحيد عبد المجيد

تصميم الغلاف
وليد طاهر

الإشراف الفنى
على أبو الخير
صبرى عبد الواحد

تنفيذ
الهيئة المصرية العامة للكتاب

من التاريخ السرى
لنعمان عبدالحافظ

محمد مستجاب



مستجاب، محمد.
من التاريخ السرى لنعمان عبد الحافظ/ محمد مستجاب
. ـ القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب. ٢٠١١
٢٦٤ ص؛ ٢٠ سم.
تدمك ٠ ـ ٠٥١ ـ ٢٠٧ ـ ٩٧٧ ـ ٩٧٨
١ ـ المجاهدون المصريون.
٢ ـ عبد الحافظ، نعمان.
أ ـ العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ٢١٦٦١/٢٠١١
I.S.B.N 978-977-207-051-0
ديوى ٥٦٩٦٢، ٩٢٢

توطئة

مشروع له تاريخ

مشروع «القراءة للجميع» أى حلم توفير مكتبة لكل أسرة، سمعنا به أول مرة من رائدنا الكبير الراحل توفيق الحكيم.

وكان قد عبر عن ذلك فى حوار أجراه معه الكاتب الصحفى منير عامر فى مجلة «صباح الخير» مطلع ستينيات القرن الماضى، أى قبل خمسين عامًا من الآن.

كان الحكيم إذًا هو صاحب الحلم، وليس بوسع أحد آخر، أن يدعى غير ذلك.

وهو، جريًا على عادته الخلاقة فى مباشرة الأحلام، تمنى أن يأتى اليوم الذى يرى فيه جموعًا من الحمير النظيفة المطهمة، وهى تجر عربات الكارو الخشبية الصغيرة، تجوب الشوارع، وتتخذ مواقعها عند نواصى ميادين المحروسة، وباحات المدارس والجامعات، وهى محملة بالكتب الرائعة والميسورة، شأنها فى ذلك شأن مثيلاتها من حاملات الخضر وحبات الفاكهة.

ثم رحل الحكيم مكتفيا بحلمه.

وفى ثمانينيات القرن الماضى عاود شاعرنا الكبير الراحل صلاح عبد الصبور التذكير بهذا الحلم القديم، وفى التسعينيات من نفس القرن، تولى الدكتور سمير سرحان تنفيذه تحت رعاية السيدة زوجة الرئيس السابق. هكذا حظى المشروع بدعم مالى كبير، ساهمت فيه، ضمن من ساهم، جهات حكومية عدة، وخلال عقدين كاملين صدرت عنه مجموعة هائلة من الكتب، بينها مؤلفات ثمينة يجب أن نشكر كل من قاموا باختيارها، إلا أنه، للحقيقة ليس

غير، حفل بكتب أخرى مراعاة لخاطر البعض، وترضية للآخر، ثم إن المشروع أنعش الكثير من متطلبات دور النشر، بل اصطنع بعضها أحيانًا.

وبعد ثورة ٢٥ يناير والتغيرات التى طرأت توقفت كل الجهات الداعمة لهذا المشروع الثقافى عن الوفاء بأى دعم كانت تحمست له عبر عقدين ماضيين، سواء كانت هذه الجهات من هنا، أو كانت من هناك.

ولم يكن أمام اللجنة إلا مضاعفة التدقيق فى كل عنوان تختار، وسيطر هاجس الإمكانات المحدودة التى أخبرتنا بها الهيئة فى كل آن.

والآن لم يبق إلا أن نقول بأن هذه اللجنة كانت وضعت لنفسها معيارًا موجزًا:

جودة الكتاب أولاً، ومدى تلبيته، أولاً أيضًا، لاحتياج قارئ شغوف بأن يعرف، ويستمتع، وأن ينمى إحساسه بالبشر، وبالعالم الذى يعيش فيه.

واللجنة لم تحد عن هذا المعيار أبدًا، لم تشغل نفسها لا بكاتب، ولا بدار نشر، ولا بأى نوع من أنواع الترضية أو الإنعاش، إن لم يكن بسبب التربية الحسنة، فهو بسبب من ضيق ذات اليد.

لقد انشغلنا طيلة الوقت بهذا القارئ الذى انشغل به قديمًا، مولانا الحكيم.

لا نزعم، طبعًا، أن اختياراتنا هى الأمثل، فاختيار كتاب تظنه جيدًا يعنى أنك تركت آخر هو الأفضل دائمًا، وهى مشكلة لن يكون لها من حل أبدًا. لماذا؟

لأنه ليس هناك أكثر من الكتب الرائعة، ميراث البشرية العظيم، والباقى.

رئيس اللجنة

إبراهيم أصلان

فصل فى المولد والنسب

واحد فى هذه الأيام لا يمكنه أن يحدد العام الذى ولد فيه نعمان، يقينًا كان الراشيستاغ الألمانى قد أحرق تمهيدًا لأن يتخلص من أدولف من المعارضين للرايخ الثالث، كما أن لينين كان حتمًا قد مات وسلم روسيا الاشتراكية إلى خلفه العنيد، ومن المتعذر أن نعتقد أن تشمبرلين قد تولى أمور العظمى بريطانيا حينذاك، وليس من المؤكد أن يكون عمى محمد (بكسر الميم الأولى والحاء) قد خرج من السجن فى قضية استزراع الخشخاش وسط القطن، وهو الوقت الموازى لحكاية ساعة جدى الحاج مستجاب[1]، وبالتالى

---

(١) روى عن الحاج مستجاب أنه - أثناء عودته من الحقل - فى ظهر يوم جمعة صائف: عثر على قطعة مستديرة من المعدن البراق، فالتقطها حامدًا الله على مكافأته، غير أن القطعة المعدنية كان بها سلكان رفيعان يتقافزان أسفل بنورتها، فوجف قلب الرجل المؤمن، وازداد القلب وجلاً حينما قربها من أذنه، لقد كان هذا الشىء الشيطانى يدق، فألقى الشيطان الحديدى أرضًا، واستعاذ بالله، ثم دكه بعكازته حتى اطمأن إلى تحطيمه تمامًا - وهى حكاية متأخرة مختلفة من حكاية ساعة شارلمان وهارون الرشيد.

يمكن أن نقفل الأقواس على موعد تقريبى لميلاد نعمان، كى نضرب على أيدى بعض الآراء التى حاولت أن تنال من رجلنا؛ إذ أصبح راسخًا أن نعمان ولد فى أحد أيام الهجير الشديدة الحرارة، والتى يبدأ فيها محصول الأذرة النيلية فى النضج، فقد كانت السيدة أم نعمان تحتكر بيع الملوحة على الشواطئ المتعرجة لبحر يوسف الممتدة من شمال قناطر ديروط حتى التواءات عزب أبى جبل، وقد ولدته فى عشتها المتحركة والتى تخضع تحركاتها لكل فجائيات الفيضان، بعيدًا عن بقع الكثافة السكانية، ومن المحتمل أن أحدًا ساعدها فى عملية الوضع، غير أن هذا الاحتمال لا يشغلنا، فقط فإن نعمان - بالقطع - كان يمكنه أن يتسلق نصف جذع نخلة، أو يتعاوم فى قنوات بحر يوسف، أيام محاصرة الدبابات الإنجليزية لقصر عابدين وتسليم الوزارة لمصطفى النحاس باشا، وهذا ما يتفق تمامًا مع ما أثير من أن نعمان ولد بعد الهوجة[1] بزمن غير

---

(١) بسبب كثرة الأحداث التى أطلق عليها لبعض (الهوجة) لجأت إلى أكداس من دفاتر مواليد البلد المحفوظة بالمديرية، وتبين لنا الآتى: نعمان عبدالحافظ خميس مقيد بدفاتر مواليد ١٩١٠ و١٩٢٩ و١٩٢٨، وفى محاولة للاستقصاء اتضح أن أم نعمان أنجبت أربعة: مات نعمان الأول فأنجبت الثانى وأسمته (نعمان)، ومات الثانى فأنجبت الثالث وأسمته (نعمان) وأنجبت الرابع وأسمته (نعمان)، اعتقادًا منها بأن الثالث حتمًا سيموت، لكن (النعمانين) عاشا فترة ثم مات أحدهما، وقد عجزنا عن التوصل إلى تحديد الميت فيهما، ولقد نتج عن ذلك أن نعمان عبدالحافظ طلب للقرعة العسكرية عام ١٩٢٠ (وتأشر أمامه بالوفاة) وعام ١٩٤٩، (واتضح فيها أن نعمان مجرد صبى) - وعام ١٩٦٢ وتبين أنه قد تجاوز الخامسة والثلاثين وأنه (لا يصلح بتاتًا للخدمة العسكرية لتجاوزه السن بغض النظر عن الأنيميا التى أجهدت قدراته وأصبح من الصعب تحديد سنه بشكل قاطع، مقدم طبيب محمد حسن لبيب - رئيس القرعة العسكرية إدارة الفرز - أسيوط ١٩٦٢/٨/٨).

معروف (فى رواية نميل إلى الوثوق بها للشيخ عبدالعزيز خليل)، وبالتالى كان صعبًا إخضاع (الهوجة) لمدلول معين: هوجة عرابى أم هوجة سنة ١٩١٩ أم هوجة الغز الذين تقاتلوا مع باقى قرى المنطقة سنة ١٩٣٤ وانتهى الأمر بنزوح عائلات من قراهم إلى بطون الجبل وأجنحة وديان، وهذا نفسه ما يجعلنا نستبعد روايات أخرى يرقى إليها الشك، منها ما روتها عمته الوحيدة - التى ذهبت ضحية للسكساح - من أنها احتست الشاى فى بيت خفير لحظة سماعها نبأ مولد نعمان، إذ إن الشاى - فى بواكير دخوله البلاد - ظل زمنًا طويلاً - وحتى بعد خروج عمى محمد من السجن - وقفًا على الطبقة العالية، ومن الروايات الضعيفة أيضًا ما قيل من إن نعمان عبدالحافظ ولد فى أثناء الاحتفال بليلة الشيخ ربيع مرسى بلال، إذ بمراجعة أسماء وليالى المشايخ المعتمدين فى القرية ثم فى المنطقة، وبمناقشة حوارييهم والداعين لهم لم نطمئن لوجود شيخ له هذا الاسم[1].

وأصبح قريبًا من المؤكد أن نعمان رأى الدنيا على شاطئ بحر يوسف فى الفترة التى تتسع لثمانى سنوات بعد عام ١٩٣٠ على أدق الفروض.

---

(١) استبان لنا أن ثمة من يدعى الشيخ ربيع مرسى بلال، عاش فى أوائل القرن العشرين تحت حقبة سلم آل مرسى بلال، ولم يكن شيخًا بالمعنى المفهوم، إذ كان مجرد صبى توقف نموه وفقد القدرة على الحركة والكلام، وقصد مرات من عقيمات وصاحبات حاجة، فلما وضح أنه محدود الاستجابة هجر، ومات دون معجزة تذكر.

وأبو نعمان هو: عبدالحافظ خميس. واحد من بطون عائلات الحدايدة المتوطنة فى جنوب ديروط الشريف، لم يكن من أصحاب الأملاك: أرضًا أو عقارًا أو تجارة، غير أن الرجل كان ذا صفات منفردة جعلته واحدًا من أشهر الشخصيات فى أواخر القرن ١٩ وثلث القرن العشرين، إذ كان رياضيًا يمارس رياضة الجرى وراء حمير الأعيان أثناء مشاويرهم من القرية إلى ديروط المحطة فى عز البرد أو الحر، كان صامتًا عزوفًا عن معاشرة الناس، حتى أثير حوله كلام عن توسعه فى ميوله الرياضية، فقد بدأ يستولى على محاصيل بعض المواطنين بكميات قليلة... ليلاً، حتى تضرر الناس فاضطروا أن يتلمسوا الوسائل لضبطه متلبسًا، لكن عبدالحافظ خميس - بهدوئة - لم يترك لهم فرصة تحقيق مآربهم فيه، ثم لم يلبث أن غاب فترة وعاد إلى القرية يقود - فى كبرياء هادئة - جملاً، وظل أبو نعمان يعمل على جمله دون توقف أو تكاسل إلا فى حالات قليلة (مثل حلول ليلة الشيخ أبى هارون)، إذ كان ينتظر يومًا كهذا بفارغ الصبر، يترك جمله باركًا أمام منزله، ويهرع إلى نصبة الغوازى فاغر الفم منبسط الأسارير يحتسى القرفة، وعندما تمر الغازية أمامه للمرة العشرين أو الخمسين تنفعل أعضاء أبى نعمان، فيلقى بلبدته على الأرض ويهتز حولها راقصًا على إيقاع التصفيق الصاخب الخلاب، ثم يرهق فيسقط إعياء على أول دكة، ويخرج القطعة المعدنية من جيب جلبابه الكتانى فيلقيها إلى الغازية فى فخر، حيث - بعدها - يظل صامتًا حتى تباشير الصبح.

ثم حدث أن راقصة تدعى (بدرية) لم تترك له فرصة - فى سنة ما - أن يعود إلى منزله بعد تأدية واجبه، إذ تسامرت معه فتشابكا فى علاقة قوية، استمر عبدالحافظ خميس يجترها - هذه العلاقة، حتى عادت الغازية فى العام التالى، فباع جمله الوحيد، وظل يدور وراء بدرية فى العزب والكفور والمدن حتى تلاشت أخباره تمامًا.

وترددت أقوال - سندحضها فيما بعد - من أن أبا نعمان مات مقتولاً فى الدير المحرق أثناء احتفالات مسيحية وأن بعض رجال القرية شاهدوا جثته بأعينهم، كما قيل أيضًا إن الرجل قتل فى عام ١٩١٩ خلال مهاجمة أهل القرية للقطار الإنجليزى الشهير أثناء الثورة[1]، ثم ردد بعض الموتورين دعاوى أخرى تتضمن أنه تزوج بالغازية وأصبح واحدًا من جوقتها، كما أن رجعيًا روى أن عبدالحافظ خميس قد تاب وانضم إلى مريدى أحد ذوى الكرامات فى بقعة جبلية.

والذى يدحض كل هذه الافتراءات أن أبا نعمان عاد ذات عيد، عاد إلى القرية وإلى الدرب وإلى زوجته، صامتًا كعادته مثقلاً بالتجارب والوعى - دون جمل، وظل منطويًا على نفسه فترة، ثم بدأ يمارس هواياته الأثيرة، غير مستمع إلى نصح أو مستجيب لإرشاد أو مهتم بوعيد، حتى ضاق أهل الدرب فيه، ليس فقط بسبب

---

(١) بمراجعة كتاب الأستاذ عبدالرحمن الرافعى عن ثورة ١٩١٩ لم يستدل على اسم عبدالحافظ خميس بين القتلى أو الجرحى سواء فى ديروط أو فى بلاد أخرى.

سلوكه فى المزارع، بل لأن هذه الشائعات جاءت متوازية مع تعدد اختفاء الدواجن وصغار الماعز من الدرب.

وفى الثلاثينيات عقد (مجلس عرب) وأدين عبدالحافظ خميس غيابيًا؛ حيث صدر الأمر بالإجماع على أن ييسروا له مبارحتهم، فلما لم يقم الرجل وزنًا لقرارهم بدءوا يؤذونه فى نفسه وماله، وقد تردد أنهم أحاقوا به الأفعال الشائنة الآتية:

(أ) داهمه عجل هائل أثناء تناوله العشاء مع أم نعمان، فى باحة منزله، مما أحدث تحطيمًا فى ضلعه الثامن الأيسر، ولم يقدم أحد تفسيرًا أو اعتذارًا عن الحادث.

(ب) تواطئوا مع الخياط الذى سرق جزءًا من قماش جلبابه، فاضطر أبو نعمان أن يكمل الجلباب بقماش ذى لون مختلف.

(جـ) رفضوا استدعاءه للشهادة فى قضية مقتل أبى إدريس رغم أن قَطْع رقبة المقتول تم أمامه.

(د) دسوا له عند أحد حواة استخراج الثعابين والعقارب: فأعلن الحاوى خلو بيت أبى نعمان من الحشرات والزواحف وفى اليوم التالى بخ ثعبان فى السمك، ولولا بصيرة أبى نعمان وحذره ووعيه لراح ضحية الحادث.

(هـ) سرقوا جلبابه أكثر من مرة: سواء على شاطئ الترعة أو من داخل منزله[1].

---

(١) قيل أيضًا إنهم سرقوا حذاءه، وهو قول مردود لعدم توفر أحذية فى ذلك العصر.

وقد ظل الرجل صابرًا صامدًا حتى خرج المناوئون له عن حدود الشرف فأذاعوا وسط القرية أن رصيد الرجل من الرجولة ضئيل، وأن موت أولاده قبل الفطام راجع إلى كونهم جاءوا بغير ما يرضى الله، ثم زاد الأمر سوءًا ما ارتجزه الشيوخ شعرًا ضده:

عبد الحافظ يا خميس يا اللى فعلك فعل إبليس

هاجر وامش

إلى آخر تلك القصيدة[1]، والتى حملت فى مضمونها تهديدًا صريحًا بأنهم سوف يربطونه مقلوبًا مطين الرأس فوق جحش، ومن المؤسف أن القصيدة خرجت عن واجبها كإنذار فتهمشت فوق ألسنة الأطفال والرعاع، الذين أدمنوا استقباله ـ أو وداعه ـ بها مختلطة أحيانًا بالحصى والطوب.

ثم تناقل الرواة بعد ذلك ـ أو أثناء ذلك ـ رواية ضعيفة مفادها أن أحد الأعداء أوعز إلى كلب مسعور أن يهاجم ساق أبى نعمان، فتخلى الرجل عن صبره وتصارع مع الكلب جسدًا لجسد، والشعب حولهما مجتمع ليضحك ويسخر مسرورًا ومشجعًا هائصًا حتى سقط الاثنان فاقدى الوعى.

ونقطة الضعف فى الرواية ترجع إلى أن هذه المقولة لم تظهر إلا فى السنوات الأخيرة، إذ من الثابت أن عبد الحافظ خميس عقره

---

(١) القصيدة من ٤٩ بيتًا، ويُقال إن الشيخ راشد ـ وهو مرتل شهير ـ قد استباح لنفسه أبياتًا انشدها فى مناسبات عدة، غير أن بعض أبياتها لا يزال يُعامل معاملة الحكمة فى كثير من النجوع المجاورة.

كلب، كما عقره من قبل أكثر من كلب، دون إيعاز من أحد، والثابت أيضًا أن أبا نعمان ظل طويلاً بعد إصابته يهذى ثم سعر وكلب، وأصبح خطرًا على الناس تعميمًا وعلى أهل الدرب تخصيصًا، فتخوف المواطنون منه، واحتاطوا، وظل الرجل ينبح فى ليال كثيرة مما هيج إحساس العامة بالخطر وأطار أمنهم، ثم ترامت أنباء أن بعض الفتية يتربصون به، فهلعت أم نعمان (والتى فيها يعتقد لم تكن قد أنجبت نعمان بعد) وخافت، وحملت زوجها المصاب بليل لتنجو به وبنفسها (رغم تأكيد الأهل لها بالاطمئنان)، وظلت تشرخ به المزارع والطرق حتى أرهقت، ولم تجد بدًا من أن تجلس لتستريح إلى كمية من البوص الناشف، هذا البوص الذى صنعت منه عشتها فيما بعد، وفى هذه البقعة وربما فى الليلة نفسها مات عبد الحافظ خميس.

ومن الغريب أن القرية التى أحلت دمه، هى نفسها القرية التى خرجت وراءه عن بكرة أبيها، ـ فقد صادف يوم دفن أبى نعمان.... يوم الجمعة اليتيمة، وهناك اعتقاد بين العامة أن من يلقى ربه فى يوم كذلك فهو ـ لا غرو ـ وبالحتم ـ مبارك، فصلوا على أبى نعمان ظهر الجمعة اليتيمة فى مسجد الأمير سنان الذى بناه الشريف حصن بن ثعلب صاحب عمرو بن العاص، وقيل إن النعش ظل يدور فى أنحاء القرية رافضًا التوجه إلى منطقة الدفن، وحاول الشيوخ أن يتوسلوا إليه كى يتوجه إلى طريق القبر، واضطروا أن يحضروا للنعش ـ استرضاء ـ الطبل والزمر، وزغردت النسوة ليمسى اليوم مشهودًا، فقد جر النعش المشيعين خلفه، ليس فقط فى ديروط

الشريف، بل وإلى القرى المجاورة، ولهث الرجال وتصببوا عرقًا، واتصل ذوو الشأن بالمأمور الذى جاء بعسكره محاولاً أن يدفن الجسد الكريم عنوة، إلا أن النعش ظل مقاومًا ساحبًا خلفه الجماهير المنشدة الداعية المطبلة المزغردة، وكادت تقع اضطرابات مؤسفة بين أهل النعش وبين بعض المعترضين لولا حكمة المسنين وذوى التجارب، ولولا أن غربت الشمس، ولولا أن أراق النعش الرضا فوق رءوس السعداء اللاهثين المرهقين؛ حيث رضى عبدالحافظ خميس ـ فى النهاية ـ أن يدفع حامليه ومشيعيه إلى المقبرة، ولم تنم القرية ليلتها إذ جمعوا أموالاً واجتمع مجلس العرب فى ساحة الأمير سنان ليخططوا لبناء مقام يليق بصاحب الكرامة، وخلال أيام لم تزد على الأربعة (ستة أيام فى مقولة للحاج محمد حسنين) أتموا المقام وبيضوه ورفعوا شاهده إلى خمسة أمتار، ورسموا على الجدران خيولاً وسيوفًا ومراكب وجملاً، جملاً ضخمًا كان يسمع صوته على مسافة سبعة مدافن، ثم اجتمعت القرية كى تنقل جدث وليها إلى مكانه الجديد الأنيق المفروش بالرمل الذى استجلب من الجبل الشرقى، غير أن الأمر سار فى غير ما ترضاه قريتى، والتى حاولت فى زمن أن تتوسع فى عدد أوليائها الذى لم يزد على ثمانية، فقد تبينت القرية أن بعض الوحوش[1] قد نبشت فوهة القبر، وازداد الذعر حينما فوجئوا بالكفن ممزقًا وعظام

---

(١) أُشيع أنْ الذى فتك بجثمان الشيخ كان مجرد نمس غير أن البعض يصفه ـ دون رؤية ـ بأنه غول.

الشيخ الجليل ذات اللحم النفاذ الرائحة تملأ ساحة القبر، واستعاذ الناس بالله واضطربوا، وتركوا القبر القديم والمقام الجديد خاويين.

مؤكد - بعد ذلك - أن نعمان ولد فور كارثة دفن والده الشيخ الكريم، ولولا ذلك الوحش الذى استباح المكان لتغيرت أمور كثيرة، (دون رد على الدعوى التى أثيرت ساخرة من هذا الأمر)، فمما لا شك فيه أيضًا أن رجلاً - ميتًا - ثبتت كرامته كان جديرًا أن يقدسه العامة، وأن يهتم أهل القرية بنسله، وأن يكرموهما ما قدروا على الإكرام، لكن كرامة الشيخ عبدالحافظ لم تقاوم الزمن سوى أيام قليلة، وبالتالى فإن نعمان حينما وفد إلى الدنيا، وفد على شاطئ متآكل فى عشة من القش، والرياح تزمجر راسمة للمولود عالمًا جديدًا مغايرًا، ومياه بحر يوسف تتموج حاملة البشرى للأرض والمزارع، غير ملقية بالاً بتلك الإرهاصات التى كانت تغمر الدنيا وفى ضميرها بوادر الحرب العالمية الثانية، حيث يقال إنه - وفى تلك الأيام بالذات - بدأ موسولينى يدك ببوارجه شواطئ الحبشة.

فصل فى الطفولة والصبا

أرجح الرأى الذى يميل إلى التعامل مع حياة نعمان من خلال كونها مساحة محاصرة ـ أو متصلة ـ بمساحات أخرى على امتداد أحقاب طويلة لأناس آخرين، أم وأب وجدان وجدتان وأعمام وأخوال، أن فصل مساحة نعمان عن حيوات الذين مضوا عنه أو معه يعد تعسفًا استخدمه بعض المناوئين له، قاصدين عزل حياته تمهيدًا للتقليل من شأنه... ثم تدميره.

فعلى ترعة بحر يوسف، وفى العشة نفسها التى ولدته أمه فيها، ومن خلال الحركة الدءوب التى تقوم بها الأم وسط الحقول لتسويق بضاعتها: الملوحة وحلوى العسل الأسود والبلح الصائف، كان يمكن لأى لص حقير أو ذئب هائم أو كلب ضال أن يطبق نظرية الفصل المشار إليها وينهى مسألة نعمان ليتحول إلى مجرد رمة ـ أو بقايا رمة ـ تعبث فيها رياح البرارى.

غير أن الأمر لم يكن على هذه الشاكلة، فعم نعمان ـ الأكبر ـ ظل فترة من حياته يحصل على عيشه من ارتياد الأذكار وتجمعات

تنظيمات إحياء السبوع وخمسة عشر وأربعين الموتى، وعم نعمان الأوسط - ذلك الذى بقرت بطنه جاموسة هائمة - كان متخصصًا فى نقل طلع ذكور النخيل وتلقيح الإناث به، وعم نعمان الثالث - وهو الأصغر - عمل فى مبدأ حياته مشذبًا لحوافر البهائم، ثم أنهى حياته سالبًا لأكفان الموتى، كما أن لأخواله مجدهم الشخصى الذى لا يتجرأ مضلل على العبث به، وإن كان المعلومات التى بين أيدينا لا تمنحنا اليقين بأن لنعمان أخوالاً أصلاً، وكان جد نعمان من ناحية والدته إخصائى إخصاء جديان، أما خميس - جد نعمان من ناحية أبيه - فقد ورد إلينا أنه قضى نحبه على فراشه المدسوس خلف شجرة التوت فى الطريق إلى سويقة القرية.

وقد تضافرت كل هذه العروق على تغذية وجدان نعمان، بحر يوسف أسفل العشة يخر بالمياه والأشجار الباسقة توشوش بالنسيم ومساحة شاسعة من الحقول بالخضرة، فإذا أضفت للمنظر قليلاً من العصافير فى الجو وقليلاً من السحالى فى الأرض، ومزجت كل ذلك بروافد ما ورثه نعمان من أهله أصلاً، لوضحت المسائل، فقد أشاع الذين لا يحبون نعمان أنه لم يتلق تعليمًا منتظمًا فى طفولته، فى الوقت الذى كان يجب على هؤلاء المنظرين أن يسموا بنظرياتهم، إن الكثيرين من أبناء المدرسين والضباط والموظفين والتجار والمحامين والسياسيين يقضون طفولتهم فى أزمات تربوية هائلة التعقيد داخل الجدران المزركشة بصور الممثلات، وأكبر تجربة يمكن لأهاليهم أن يضموها بسجل ذكريات الطفولة لا تزيد عن جروح سطحية بسبب سوء ركوب دراجة أو سقوط خلف ترام أو

انهيار درابزين سلم، إذ نادرًا من تواتيه فرصة تسلق شجرة أو حتى معابثة قطة، أما نعمان ـ ذلك الذى كان نصيبه من التعليم المدرسى صفرًا: أجاد العوم فى الخامسة والغطس فى السابعة وشهور، وفى الثامنة من عمره كان يمكنه أن يتسلل ليلاً إلى حقول الطماطم لينتزع ثمارها، وفى التاسعة استولى على جدى صغير وذبحه بصفيحة صدئة، وتمكن من تسلق نصف نخلة، وحطم جمجمة كلب ميت، وأشعل النار فى البوص وغابة نبات ذيل القط، وفى الثامنة ـ أيضًا ـ صاد عصفورين بحجر واحد، وعبث فى مدخل قناة رى فأغرق عشرين فدانًا وخمسة قراريط، وقطع الطريق على صبية ترعى الماعز وسلبها ملء الكفين جميزًا، وتسبب فى سقوط ناقة هوى بها جرف فى بحر يوسف، ورجم كل السيارات ـ القليلة ـ التى مرت على الطريق القريب، وتابع طائرة محلقة وظل ـ بصوت عال ـ يسب أم سائقها حتى هوى[1] نعمان فى شرخ أرض شراقى، وفى التاسعة كان يمكنه يخصى ذكور الماعز كل لا تستنفد الجديان حيويتها وسمنتها فى العلاقات المريبة، وفى العاشرة نجح فى تسلق نخلة كاملة، وحفر فخًا فى الطريق وغطاه بالأعشاب والتراب

---

(١) هناك رواية وثيقة لأسباب مطاردة نعمان للطائرات فى الجو: إذ حاولت حداة خطف نعمان ـ فى عامه الأول ـ أثناء استكانته داخل لفافته فى بطن قناة جافة، وقد أفزع الحداة الصراخ الرهيب الذى انطلق من أم نعمان فلم تتمكن من إتمام مهمتها، وقد عانى نعمان من جروح دامية فى صدغه الأيمن وذراعه الأيسر شهورًا طويلة، وقد أهملنا هذا الحادث عمدًا؛ حيث ورد بشكل مشابه فى كتاب الدكتور أحمد عكاشة عن ليونارد دافنشى.

ليستمتع بسقوط السابلة، وفى العاشرة نقل كلامًا أدى إلى ثلاث مشاجرات أسفرت عن بعض الكوارث الصغيرة، وأجاد لعب النحلة والحجلة وأول كريه أنه استلب رجلاً ملابسه أثناء استبراده فى الترعة، وتعرف على تجار الملوحة فى عزبة شلقامى وديروط المحطة وعزبة الجحوش، وعاون فى استدراج غريب إلى وكر فى منعطف حيث قُتل.

ومن المعتقد أن أم نعمان كانت تناشده ألا يخاطر بنفسه، هو ولدها الوحيد وعائلها فيما بعد، ثم لم تلبث أن تنبهت ـ فور ما أشيع عن اشتراك نعمان فى استدراج الغرباء للأوكار ـ أن الولد يتغيب كثيرًا عن العشة، كما أن معدل إنتاجه اليومى من حبات الطماطم وأكواز الذرة وصغار السمك قد تناقص بشكل ملحوظ، وقد حاولت أن تستجوبه لكن نعمان ـ على غير عادته ـ تجرأ على أمه، بل وتهجم عليها بألفاظ شائنة أحسب أنها دست عليه من غوغاء المنطقة، وقد اضطرت أمه إلى ضربة متجاوزة بذلك قواعد التربية الحديثة، ثم حاولت أن تسترضيه نادمة، لكن نعمان بدأ يأخذ جانبًا من العشة ويتكور صامتًا، ثم بدأ يميل إلى النوم، ثم أخذ يكمن كمونًا طويلاً دونما إصغاء إلى محاورات أمه أو انتباه إلى حزنها.

حينئذ بدا لأم نعمان أن المسألة لا يمكن السكوت عليها، صحيح أن جسده ليس ساخنًا، وأن صمته قد أراح رأسها وجنبها قلبة الدماغ، إلا أن المرأة لم تحتمل هذا الصمت وهذا التكور وهذا الكمون.

ونعتقد أن أم نعمان قد ابتاعت بخورًا وحرقته داخل العشة، وحملت الولد بين يديها عابرة به حول النار وفوقها مرتلة الأدعية ومنفثة ما قد يبعد الشياطين، إن أذى قد حاق ـ حتمًا ـ بالولد، وأن عيون القرية ـ المقذاة ـ لا بد صوبت الحسد ضد نعمان بنشاطه وقدراته على إحضار (الخير) الكثير من المزارع إلى العشة، وقد نجحت أم نعمان فى تحليل ما أصاب ابنها.

يقول ألبير كامو ـ أو أحد هؤلاء الناس ـ عندما تموت هذا العام فإن الموت سوف يتجنبك فى العام القادم، ولم تكن أم نعمان تهتم بأقوال ألبير كامو، إذ لم تلبث أن حملت نعمان فوق كتفها واخترقت الأحراش والقنوات والبقع الطينية، تدوس الشوك والقتاد والأذى والعاقول، ونعمان ـ فوق كتفها ـ صامت ساكن، وبين وقت وآخر تصرخ فى حنان: نعمان، لكن الولد لا يرد، يتأوه، يتأوه فقط، وظلت تمخر عباب الأرض حتى وصلت إلى كوبرى المعاهدة، ونعمان لا يرد، فظلت تقاوم الإعياء حتى وصلت إلى مبنى المستشفى الأميرى ذى الملمس الأسمنتى البارد، وأنزلت نعمان وجلست ثم أنامته على فخذها مستندة إلى حائط المستشفى، دقائق لا تزيد حينما هاجمها بواب المستشفى، وكأن نعمان آثر الرد بنفسه، فقد تبرز الولد وأغرق فى أشياء كثيرة أقلها الحرج فازدادت ثورة بواب المستشفى، وأمرها بأن تتجه بابنها ـ القذر ـ إلى الباب الآخر، وأنه ممنوع ـ يا ناس ـ الجلوس فى هذا المكان، وصرخ أثناء ثورته بأن هؤلاء الملاعين ـ الذين منهم أم نعمان ـ سوف يخربون بيته، وأن حكيمباش المستشفى سوف يصل الآن، وظل بواب المستشفى يرغى

ويزيد طالبًا من أم نعمان بالإسراع ـ الله يخرب بيوتكم، لكن أم نعمان ـ ولأنها أم نعمان ـ لم تسكت، إذ سبت فى صوت عظيم مجموعة الوظائف والمناصف التى يتضمنها الهيكل التنظيمى للمستشفى بدءًا من الحكيمباشى حتى البواب، وتجمع الناس ودخلوا فى الحكاية متعاطفين مع رجل المستشفى، وأوضحت أم نعمان للقوم أنها تستريح وستمضى، وقامت ـ ضيقة الصدر ـ فحملت بطلنا فوق كتفها، وعبرت كوبرى المعاهدة حزينة واجفة، مرهقة، نعمان، لكن نعمان ـ يظل ـ لا يرد، فترتبك أم نعمان وتزداد تشبثًا به، تخترق الأحراش والبرارى وأكوام السباخ ومستعمرات الطوابين والمستنقعات، ملهوفة الخاطر مكسورة الظهر، نعمان، ويظل نعمان لا يرد، وأقدامها تنغرز فى الأحجار والشوك والطين، حتى وصلت به إلى القرية...

وعرجت مباشرة فى دروب القرية إلى حيث الشيخ عبدالودود، سر القرية وحافظها وملجم شياطينها ومخفف آلامها، وما كادت تدخل حتى وافاها الرجل مبسملاً محوقلاً:

ـ خير...

ـ افتح لنا الكتاب يا سيدنا..

ومد الشيخ عبدالودود يده الساحرة رأس نعمان الغارق فى السكوت والصمت، والآيات المقدسة تنساب وتهوم وتملأ الغرفة، واقترب من نعمان أكثر، وظلت أنفاسه المضمخة بالآيات تزحف

حول رأس الولد ورقبته وعنقه وجسده، ثم أحضر كتابه العظيم المجلد بكستور قديم وظل يقلب ويقرأ ويمسح ويستعيذ بالخالق...

ثم... وكأن الشيخ عبدالودود قد أمسك بأول الخيط، صمت قليلاً وصرخ صرخته الداوية. وتناول ريشته وأوراقه وبدأ يخط باللون الزفر ذى الرائحة النافذة، وأشعل النار وتناول فى رحمة وشموخ جسد نعمان، وملأ الدخان المكان فاغرورقت العيون، بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ﴾[1]، ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾[2]، ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾[3]، ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾[4]، ﴿وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾[5]، ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾[6]، صدق الله العظيم، هو الشافى وهو البر التواب، ريال يا حاجة!!، ريال؟ وقبل أن تجيبه أمرها أن تحمل ابنها وتخطو به فوق بقايا النار سبع خطوات، وهنا، وفى هذه اللحظة كح نعمان، كح نعمان وصرخ، صرخة هزيلة لكنها مسموعة، العفريت يخرج من الجسد. والشياطين تفارق النخاع، الجن تبارح نعمان العظيم، ودس الشيخ عبد الودود

---

(١) (سورة الأنعام ـ الآية ١٢٨).
(٢) (سورة الكهف ـ الآية ٨٦).
(٣) (سورة الأنبياء ـ الآية ٦٩).
(٤) (سورة الحجر ـ الآية ٥٥).
(٥) (سورة فصلت ـ الآية ٤٩).
(٦) (سورة الزخرف ـ الآية ٣٦).

الحجاب تحت إبط نعمان، واستند إلى الحائط، وظل متمعنًا... أو منتظرًا...

وإنّى هنا أنوّه بهذا الجهد الخارق الذى لم تتوان أم نعمان فى الوفاء به، إن أشياء كثيرة ـ فى حياتنا ـ تستحق التضحية، من بينها ـ ولا غرو ـ نعمان...

ودفعت أم نعمان الريال...

وبدأت تطمئن على أن ابنها سوف يدخل عفيًا قويًا مرحلة المراهقة.

فصل فى الهلاك

لا بد الآن من التوقف أمام الفرية ـ أى الأكذوبة ـ التى أطلقها مخادع حول نعمان ـ متهمًا ـ إياى ـ أننى توطأت فى إزاحة أبى نعمان من الوجود؛ كى أتيح للابن فرصة أن يشب يتيمًا، تمهيدًا لضمه إلى قائمة من ذوى الخوارق والمعجزات، ووثق المخادع فريته البراقة، فأورد مجموعة من أسماء مشهورى اليتامى الذين أحدثوا تغييرًا فى مسار الدنيا، وتجرأ ـ هذا المخادع ـ ورصد حالة لأحدهم دون أب أصلاً.

ولسنا نزعم أننا قادرون على الولوج فى عالم الذين تسبغ عليهم السماء حمايتها ـ بجدارة يمكن أن تحرز بها نصرًا، غير أن ملاحظة مفاجئة من صديق[1] يتمتع بذكاء طارئ يتهمنا أن معظمنا يتامى حتى مع وجود الأب، وأن الآباء ـ على العموم ودون التعرض

(١) ينبع رأى صديقنا ذى الذكاء الطارئ من وظيفته التى كان يمارسها فى جهاز له مصروفات سرية، وقد استقال صديقنا هذا وعاد إلى مسقط رأسه، فاشترى منزلاً وزوجة بأبنائها وسبعة فدادين ونصف ترعة.

لاستثناءات ـ يندرجون تحت بند العوائق، ومحظور عليك أن تقول لهم ـ مع ذلك ـ أف.

وعندما أبسط فرية المخادع وملاحظة ذى الذكاء الطارئ ـ دون اقتناع كامل بهما، آمل أن يكون واضحًا: أن إجلاء طريق نعمان من الأب ـ مبكرًا ـ أيسر لى من إنمائه فى كنف رجل سوف أجبر نعمان ـ حتمًا ـ على إزالته بوسيلة تميل السماء إلى إدانتها، كفيل ـ أنا ـ بحماية نعمان من الذئاب والمشايخ والحداءات والمرضى والسياسيين والثعابين والثقافة والأشباح والمدرسين ورجال الليل والبحر اليوسفى والعقارب، لكنى قد أفشل فى حمايته من أب على درجة لا بأس بها من الطيبة والصبر والخلق والنبل والمداهنة.

غير أن الأمر ـ أمر نعمان ـ كان يدبر كما يدبر أمر الريح والشر والإنجاب والسحاب والشرف والخوف والبركة والشمس والخير والنجوم والحب والقمر والشجاعة.

ففى بداية فيضان البحر اليوسفى[1]: بدأت أم نعمان تعقد صفقات توريد الملوحة للنساء الموسرات صاحبات المزاج الحارق، تؤثرهن بمخزون الرشال[2] القديم الذى يمكن أن تشم رائحته اللاذعة النفاذة على مسافة عشرين قصبة، وقد حدث أن واحدة

---

(١) تظهر بوادر الفيضان فور حصد القمح، ثم تلون البلح وانتشار جرب الجمال والاستعداد لعمل الكشك وتخزين التبن وتشغيل الفواخير وتجول باعة الشبت وتقافز ذكور البهائم على الإناث.

(٢) الرشال: نوع من السمك المملح المخزون ـ وهو أكبر أحجام الفسيخ.

من موسرات بحرى البلد، وبعد مباحثات استغرقت خمس صفقات، أفرغت رغبتها الخيرة فى أذن أم نعمان: أن تأذن لها فى اقتناء نعمان.

ومزعج جدًا أن يستدرج نعمان كى يبارح الحقول والشجر وتدفق الماء ومطاردة العصافير والسحالى، ليعيش فى قرية مزدحمة بالحوائط والشجار والنميمة والخداع والأفراح وتقطير العنب والعلاقات السرية، إن ذلك شديد الوطأة على نفسى وإخلال جسيم بتوازى الخطوط التى تمنيت لو عاش فيها نعمان، حتى لو كانت الموسرة هى السيدة الكريمة العظيمة فوقية ذات الأصل والمجد والأرض والكلاب والعبدين والحسب والعتاد والخدم والسطوة، والتى قتل أبوها فى حادثة مشهورة، ثم مات زوجها الثانى، وهلك الثالث بين فخذى امرأة ملتاثة، ولم يرد خبر عن زوجها الأول حتى الآن[1]، ولم تصب السيدة فوقية بالقنوط، ففتحت بيتها الفخيم ليلاً لذوى الحيثيات والفضل والنجابة ينهلون من العلم والحديث والاسترخاء والطعام والأدب، ويطرقون الآراء حول الناعسة ودياب وأبى نواس والدستور والإنجليز والإمام الشافعى ومكرم عبيد ونجيب الريحانى.

---

(١) يروى أن الزوج الأول للسيدة الجليلة كممت الشياطين فمه لحظة اكتشافه أمورًا فاضحة فى بيته، وأنه يقيم فى عزلة منفردًا دون مخالطة لأحد، ورواية أخرى أنه قتل بيد الزوج الثالث، كما أن أخبارًا متناقلة تشير إلى سياحته فى بلاد الله مرتديًا الخيش، وكلها أقوال لا دليل على صحتها.

ويعتقد أن أم نعمان شعرت بغبطة ملموسة حينما اصطحبت وحيدها لتسليمه للسيدة الكريمة بغية أن تقتنيه غسلت جسده بنصف مياه بحر يوسف وألبيته كل جلابيبه وعرجت به على بيت عيد الحلاق فشذبت رأسه تاركًا قرن الشعر فى مقدمة القراعة، ذلك القرن الذى لن يقص إلا بعد ذبح جدى وفاء لنذر للشيخ الفرغل، ثم حشت جيوبه ببلح وطعمية كطقس وداع لابد أن تقوم به، ثم قبلته مرات، ثم توجهت به إلى بيت السيدة الكريمة فوقية فوصلت فى المساء.

وفى النهاية مثلت أم نعمان بابنها بين يدى السيدة، لم تمثل مباشرة بل وقفت طويلاً - ثم جلست طويلاً أيضًا - على عتبة القاعة المضاءة بأربعة كلوبات، وكانت السيدة فوقية بوجهها الصبوح وجسدها الممتلئ النضر تستمع فى إغراق لما ثار بين الشيخ على - فقيه القرية المتبحر - والشيخ أبو تسعة من قضايا، فقد كان الأول يناقش الثانى - للمرة المائة ألف - فى مغزى لقب (أبو تسعة) الذى أطلق عليه، فقال أبو تسعة - للمرة المليون - إن أباه كان يتفاءل بما أولاه الله - عز وجل - لهذا الرقم من اهتمام، فمن آياته - تعالى - الطاهرات:

١ - ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ - فى سورة (الإسراء: الآية ١٠١).

٢ - ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ - فى سورة (الكهف: الآية ٢٥).

٣ - ﴿ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ - فى سورة (المدثر، الآيتان ٢٩، ٣٠).

٤ ـ ﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ ـ فى (سورة ص: الآية ٢٣).

وأضاف الشيخ أبو تسعة أن أباه قد أنجب تسعة بنين وتسع إناث، وهو شخصيًا أنجب سبعة ويدعو الله أن يشمله ببركته ليقتدى بآياته فينجب سبعة، فإن لم يتحكم فتسعة عشر، فإن زاد فتسعة وتسعين.

فصرح الشيخ على محتدًا فى الشيخ «أبو تسعة»: إذن يا شيخ الأبالسة لماذا هربت مما قاله الله فى سورة النمل؟ قالت السيدة فوقية فى استمتاع ـ للمرة المليون ـ: وما الذى ورد فى صورة النمل يا شيخ على؟... وقف الشيخ على ـ فسقطت شلتة المقعد بين قدميه ـ وتلا: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾(سورة النمل: الآية ٤٨) ...!!

وفى تلك اللحظة الثمينة التى تعصب فيها الحاضرون للشيخ على المنتصر مبدين كامل إعجابهم بذكائه، لمحت السيدة فوقية نعمانًا وأمه فى مدخل القاعة، فأشارت أن يمثلا بين يديها.

ولسنا نجادل فيما حدث بعد ذلك من أحداث: مدت السيدة فوقية يدها فلثمتهما أم نعمان، ومدت يدها إلى الصبى نعمان لم يلثمها رغم لكزات أمه فى جنبه وظهره، فضحكت السيدة فى تواضع جليل ومسحت بيدها على رأس نعمان المشدوه، ثم تحركت أناملها حول قفاه وأذنيه وعادت إلى الرأس فتلمست قرن الشعر، وكل النجباء ـ احترامًا ـ صامتون، وسألت نعمان عن اسمه فلم يجب، وضحكت السيدة، وعادت تسأله عن اسمه فأجابتها أم نعمان، حينئذ

طلبت السيدة الكريمة من أم نعمان أن تستريح، فتراجعت إلى الخلف وعادت فأقعت على أرض مدخل القاعة.

واستسلم نعمان لهذا الحذر المستشرى فى أذنيه ورأسه من أضواء وأنامل السيدة العظيمة، ثم أشارت إليه أن يجلس قريبًا منها، فتطامن أكثر وانكمش بجوار ساقها اليسرى، حيث دار الحديث بين القوم عن الموضوعات التالية:

(أ) أسباب قتل موسى أقلاديوس وإلقاء جثته فى ترعة الدير.

(ب) أسباب تأخر إسلام عمر بن الخطاب.

(ج) سيرة راهبة بمدرسة سيدة الرسل ارتكبت إثمًا مع طالبة ثرية.

(د) ما انتهت إليه التحقيقات فى قضية مقتل فخرى.

(هـ) الاعتقاد بأن «أمين أبو علة» يخفى العرقى الفاخر ولا يرسل إليهم سوى العرقى الأسيوطى أو الزبيب العادى، ولا بد من إعادة تقييم علاقتهم به.

(و) احتمالات التخلص من طبيب الوحدة المجمعة الذى يقترن اسمه ببعض الشبهات.

(ز) صلح الحديبية.

(ح) الناقة التى أنجبت ديكًا فى قرية مجاورة.

(ط) ارتفاع سعر التبن والطوب الأحمر وعروق الخشب.

(ى) حديث موسع وبذىء عن أخبار أبى نواس وجنان الجارية.

(ك) حكاية إخصاء أحد الحكام القدماء بيد عبيده.

وكان نعمان ـ على الأرض قد فقد التركيز ولم يعد قادرًا على متابعة تحركات الشفاه والأعناق والعيون، وكاد ينعس لولا أن الرجال يمرحون بصوت ضاج وبأيديهم أكواب تتلألأ، وكانت أمه ما زالت مقرفصة فى مدخل القاعة مبهورة فرحة داعية إلى القوم بالسلامة والخير، حينما أشار حمدى الفرارجى إلى نعمان، فلما لم يفهم الصبى الإشارة: هرع إليه الداعى وحمله بين يديه ورفعه حتى لامس وجه نعمان لهب الكلوب، وضحك الرجال، لكن حمدى الفرارجى ألقى بالوليد إلى أحضان الشيخ أحمد محمدين سمسار فابريقة السكر، الذى قام وبسرعة ملتقطًا الجسد من الهواء غير مهتم بتلك الصرخة الفزعة التى انتابت أم نعمان وتحلق القوم فى القاعة، ونعمان جسد مطوح فى الهواء لا يكاد يستقر بين ذراعين حتى يطوح به إلى ذراعين، فتتحرك الأجساد المنتشية بالشبع والثرثرة، والمضخمة بالطيبة والكرم، ليسعدهم نعمان فى هذه اللحظات النادرة، يطير فى جو القاعة لتتلقفه الأيدى الحنون وتضمه أفواه ذات شوارب، والسيدة الكريمة تضحك وتضحك حتى تدمع عيونها الرحيمة، وصراخ أم نعمان مكتوم أو عال لكنه يثير المتعة أكثر: لا تخافى يا مجنونة، ويظل السقف يعلو وينخفض، وهبو الكلوبات يبعد ويقترب، وجسد نعمان يفرفط لكن الضجة السعيدة تظل مستمتعة بهذه الدبدبات العظيمة، والكلام البذىء يتناثر فى جو القاعة الصاخبة صانعًا هالة من الإغراق فى المتعة، والسيدة فوقية تتحرك فى النهاية طالبة من القوم الاكتفاء، فلا يسمع أحد

ولا تنقطع الضحكات والتعليقات والتطويحات، حتى يرهق الشيخ على الفرارجى ثم محمود كاتب السوق ثم محمود آخر كاتب السلخانة ثم «أبو تسعة» ثم الشيخ أحمد ناظر المدرسة[٥]، ثم محمود ثالث كاتب الوحدة المجمعة، ثم الشيخ راشد (وهو أعمى)، ثم أحمد آخر سمسار فابريقة السكر، يرهقون ويهرعون إلى المقاعد ويجرون آخر الضحكات وباقى التعليقات وذيوع المرح والسعادة، ولا يبقى فى القاعة متحرك سوى الثلاثة: السيدة فوقية غير مخفية انزعاجها المرح السعيد، ونعمان غير مخف إنزعاجه الباكى الدامع، وأم نعمان غير مخفية انزعاجها الضعيف الواهن والذى تسرب داخل دموعها وهى تمد ذراعيها لابنها منتحبة:

لو أبوك عايش يا ابنى..

ولم تكمل، فإن أم نعمان لم تكن تدرك أنها اتفقت فى هذه اللحظة ـ دون أن تدرى ـ مع فرية ذلك المخادع الذى اتهمنى بالتواطؤ فى إزالة أبى نعمان مبكرًا كى أضمه إلى قائمة اليتامى ذوى الخوارق والمعجزات وأنه لمن المؤسف أنه أعلن أن أم نعمان ـ مع ذلك ـ رحلت إلى عشتها فى البرارى ـ تاركة نعمان بين يدى السيدة فوقية: تتلمس بأناملها الجميلة قرن الشعر المنذورة حلاقته للشيخ الفرغل مقابل ذبح جدى، والهدوء عاد إلى القاعة فبدأ القوم

---

(١) يمت الشيخ أحمد ـ الناظر بصلة قربى لنعمان، ومن المحتمل أن ندخر للمذكور فصلاً مستقلاً.

يتناقشون فى أسباب خروج العقاد[1] على الوفد، وانتابتهم موجة تجشؤ سعيدة مضمخة ببقايا مرح، ونعمان ساكن هادئ مستكين بين ساقى السيدة، ومحمود العيسوى كان ـ منذ ساعات ـ قد التقى بأحمد ماهر باشا فى البهو الفرعونى الفاصل بين مجلس النواب والشيوخ، وأطلق النار على رئيس الوزراء ليسقط مضرجًا فى الدم، وقبل دقائق من عزمه إعلان الحرب على دول المحور، وبعده بساعات أمرت السيدة فوقية أن يحمل نعمان عبدالحافظ خميس إلى جناحها العلوى، فقد كانت السيدة الجليلة تميل إلى إسباغ رحمة أخرى وعطف آخر على الجسد النبيل.

(١) عباس محمود العقاد (١٨٨٩ ـ ١٩٦٤) أحد كبار المفكرين المصريين فى الستين عامًا الأولى من القرن العشرين، عاش دون زواج وعمل فترة ـ حتى عام ١٩٣٥ داعيًا لحزب الوفد ومدافعًا عن قضاياه، ثم خرج على الوفد وظل يناوئه دون أسباب مؤكدة.

[illegible]

أم أولئك [illegible]

[illegible]

[illegible]

فصل من أجل
السيدة الجليلة والجميلة أيضاً

تتكون السيدة الجليلة - والجميلة أيضاً، تلك التى قررت أن تقتنى نعمان عبدالحافظ خميس فى بيتها الفخيم: من أنف وشفتين وعينين وحاجبين وخدين ورقبة، ثم صدر وثديين وسرة وفخذين، وهى تكوينات نادرًا ما تتوافر مجتمعة أو مكتملة فى نساء قريتنا، اللاتى تتهدل تفاصيلهن بسبب تقلبات الجو وعوامل التعرية والحرارة والأطفال والطين والروث والبرد والرجال.

ومن المعتقد أن ثمة أفرادًا - قليلين - قد حاقت بهم بعض النهايات المتعسفة عقب اكتشافهم للفروق بين تكوينات جسد السيدة الجليلة وتكوينات أجساد الأخريات، بالطبع لا أقصد ما أثاره جيد عبدالنور أثناء[1] اختفائه لديهم من عيون الإنجليز فى

---

(١) جيد عبد النور: أحد أبطال مهاجمة القطار الإنجليزى عام ١٩١٩، فى ديروط، انتزع منظارًا معظمًا من يد زوجة القائد بوب لحظة الفتك به، وظل مطاردًا من=

العشرينيات، أو ما رواه سعيد الأسود صاحب الأب عبدالقدوس[1] راهب الدير المحرق الشهير، أو ما نقل عن تاجر عسل أسود وجد مقتولاً فى أعقاب هلاك الزوج الثانى للسيدة الجليلة، إذ إن ما رددوه قد يكون مبالغًا فيه، حتى لو كانوا قد اتفقوا جميعًا على أن السيدة الجليلة كانت تسترخى داخل حمام لبن أو تنام على بطنها عارية فى شمس بشنس، أو تجازف بزيارة المقابر فى الظلام، أو تستغرق فى الرقص على أنغام عازف ربابة غجرى أصيب بشيخوخة مبكرة واقتعده مرض غير معروف فى نصفه الأسفل وأقام فترة بين خدمها على أن ذلك كله ـ و خلال أحقاب التبديل والتغيير والانحسار والانفراج ـ منحنا هذا الجسد الإنسانى الرائع القادر دائمًا على عمل الخير، والذى ـ هذا الجسد الأخير ـ امتدت أنامله لتعبث فى قرن شعر نعمان عبدالحافظ المنذورة حلاقته للشيخ الفرغل مقابل ذبح جدى على عتبة المقام.

وقد يعوزنا الكثير من التدقيق للإلمام المحايد بما حدث بين سيدتنا الجليلة ـ والجميلة أيضًا ـ ونعمان عبدالحافظ خميس فى تلك الليلة التى بدأت بالحديث عن خروج العقاد على الوفد وانتهت بتقاذف النجباء المتسامرين جسد نعمان ظرفًا وسمرًا وانتشاء.

= الإنجليز مختفيًا فى البيوت، ثم ظهر فى الخمسينيات فقيرًا رث الملابس، وحاول أن يقتات من تربية الخنازير لكنه فشل ومات ١٩٥٧.

(١) يعد الأب عبدالقدوس ـ الذى قتل على ظهر حمار فى طريق ببلاو من عامين ـ المماثل الصعيدى لراسبوتين الروسى، كان يتعامل فى السحر والشعوذة مما أباح له سيطرة مذهلة على نساء الطبقات الغنية فى الصعيد ويُقال إن عمره تجاوز المائة والعشرين.

وباستبعاد ما رواه المرحوم ثابت عبد الرحمن ـ قاصدًا إثارة الريبة من خلال ما حدث، وبالتجاوز عما جاء على لسان الشيخ راشد بخصوص هذا الأمر، وبإدراكنا المتأنى رغم قصور إدراك الرواة الذين تركتهم السيدة الجليلة فى القاعة مزمعين الرحيل آخر الليل، وبإصرارنا المركز والمكثف على كشف أى غموض يجابه حياة نعمان، نجد لزامًا علينا أن نضع أيدينا على الحادث دون تخوف أو وجل.

نعمان نفسه ـ رغم توجسه وارتياعه ـ شعر بالسكينة المخدرة تنثال دفئًا من كف السيدة الجليلة على قرعته المحلوقة دون قرن الشعر. وعلى سلالم الرخام الذى استجاب من بلاد المرمر أيام إن كان والد السيدة الجليلة نائبًا وفديًا فى مجلس النواب: كاد نعمان أن يحزن ـ ولأول مرة منذ ساعة قرار السيدة باقتنائه، توقف فى الدرجة العشرين فضحكت السيدة وأعادت كفها فوق دماغ نعمان، وفى الدرجة الخامسة والعشرين ـ والتى قتل فوقها ـ فيما يُقال ـ والد السيدة الجليلة منذ أعوام ـ توقف نعمان للمرة الثانية فازدادت السيدة الجليلة فرحًا، وأهابت به أن يسعد، غير أن نعمان أحس بأن العالم ضيق، تنبه لأول مرة لخلو العالم من أشجار السنط ومياه بحر يوسف وانثناءات الطرق والشواطئ وانحناءات القنوات، لكن كف السيدة الجليلة تركت الدماغ المحلوقة ونزلت ربع شبر إلى رقبة نعمان لتصنع عامل ضغط على دفع جسد الصبى، فاهتز نعمان وازداد حرونًا، وداهمه إحساس الوحدة، وافتقد أمه، بل وافتقد أباه، يتيم نعمان لكن سيدة جليلة تضغط على رقبة ليصعد الدرجات العشرة الباقية وأذعن الولد وخطا، فازدادت السيدة مرحًا.

فى جناح السيدة الجليلة وقف نعمان، نمنمات خشب وإطارات ذهبية لصور رجال عليهم نياشين وشوارب، أرض مفروشة بالصوف الملون، لا آثار لأوانى الفخار والكوانين والملابس الشيت وصفائح الملوحة وحصيرة بوص السمار، كل شىء مزخرف بأحمر دموى وأصفر جبلى وأخضر زرعى وأزرق سماوى، وظلت السيدة الجليلة تتحرك فى الجناح داعية نعمان أن يسير أمامها، وكلما سار نعمان خطوة ضحكت السيدة وامتدت يدها تحاول أن تزيل من الصبى إجفاله.

السيدة فتحت بعد ذلك بابًا ومرقت منه ثم عادت، تجولت فى الجناح وفتحت بابًا آخر مرقت منه ثم عادت، ثم وقفت أمام نعمان ورفعته بين يديها وأوقفته على أريكة وظلت تتمعن فى وجهه، وارتبك الصبى غير أن لحظة سكون داهمته فمال إلى الثبات، بل وبدأت عيونه الثعلبية تتسع وتتيح للصورة كلها أن تقتحم وجدانه.

وعندما مدت السيدة إلى نعمان يديها تجاوب معها ومد يديه، وكادت السيدة أن تعاود الضحك، لكن نعمان وقف صبيًا شامخًا وقدماه تغوصان فى حشية الأريكة المزدانة بزهور، ومدت السيدة يدها إلى وجه نعمان فانحرفت عيناه نحو نور «الكلوب» المتوهج الذى يفح بالغربة والغرابة والاستغراب، وعادت السيدة للتجول واقتحام الأبواب والعودة إلى نعمان، ثم لم تلبث أن جذبت نعمان فى رفق وسحبته إلى الحمام.

حمام السيدة الجيلة ـ والجميلة أيضًا ـ صممه راهب إيطالى[1] قيل إنه يحفظ القران الكريم، وقد ظهر جليًا فى زوايا التقاء زخارف أركان الحمام بالسقف، حيث تنعقد أقواس ذات لون أرجوانى مع قوس رفيع بنفسجى مكونة أنصاف دوائر متداخلة حتى تلامس شرائح زجاج النوافذ العليا، وقد تساقطت أجزاء من الحائط الأيمن وانشرخت شريحتان زجاجيتان يوم الواقعة الأولى لطعن الزوج الثالث للسيدة الجليلة بحربة فى كتفه، ثم انخلع الباب الأوسط وتحطم الزجاج المقابل ليلة خروج بعض الضيوف عن الوقار المفترض فتقاذفوا بالمقاعد وتضاربوا بأكواب الزجاج، ولم تحدث آثار جانبية ذات خطر سوى تمزق جمجمة عبد ربه الذى قضى زمنًا خادمًا لسيدة الدار.

وعندما لمست أقدام نعمان بلاط الحمام أحس بقشعريرة ناعمة تخترق الجلد الخشن وتسرى فى النخاع بأسرع من البلهارسيا، لكن السيدة كانت لا تزال منتشية مستمتعة بكل ما يحدث لنعمان، وكانت أناملها لا تترك قرن الشعر إلا لتعود لرقبة الصبى، ونعمان مستأنس الأمن بدأ يطيعها مطمئنًا لأناملها، تلك التى امتدت إلى جلباب نعمان فنفضته عنه ضاحكة ليظهر الجسد الصغير الرمادى الملىء بندوب الأغصان والحفر والحصى، وابتسامة السيدة الجليلة ـ والجميلة أيضًا ـ تحتضنه كما يحتضن العش المبطن بناعم الريش فرخ الغراب، ولم تكن تعتقد ـ حتى هذه اللحظة ـ أن نعمان يرتدى

---

(١) استضيف الراهب الإيطالى فى منزل (والد) السيدة الجليلة فى أعقاب مجلس الصلح الذى عقد بين آل معوض وآل القمص، وفيه تم تسوية النزاع الذى أدى إلى هلاك خلق كثيرين ليس من بينهم هالك واحد من أسرة معوض أو آل القمص.

جلبابه على اللحم، ومن المضحك أن نعمان أسرع إلى جلبابه محاولاً استرداده مما أضحك السيدة الجليلة مرة أخرى، لكنه نسى أمر الجلباب الخائف على فقده حينما داهمه شلال من المياه المتدفق من السقف، فزع نعمان أو صرخ، ضحكت السيدة الجليلة أو صمتت، غير أن الماء القادم ـ من مكان آخر لا علاقه له ببحر يوسف ـ انهمر فوق نعمان ـ ويا لها من لذة متدفقة فى الجسد والدماغ المحلوقة وقرن الشعر المشرئب حينما انتعش نعمان وسط هالات الصابون الأبيض الذى تفوق رائحته أزهار القريللا[1].

لأول مرة يخرج نعمان من مياه فيتلقفه بشكير كالقطيفة، حتى أن الولد كاد ينعس فى حشاياه، وعندما عادت السيدة إليه كان قد وقف وسط باحة الجناح يتملى بالنظر فى جسده العارى المنعكس على سطح المرآة الضخمة، وقد سقط البشكير تحت قدميه المشرختين، لكنها ـ عندما عادت أيضًا ـ كانت (السيدة الجليلة) قد تخففت من أرديتها، غلالة شفافة فقط كشفافية مياه رائقة، وجسدها الأبيض يتماوج كما يتماوج القمر الكامن فى الأعماق الصغيرة للبحر أسفل عشة البوص، مكتنز أبيض مرتاح أسفل الغلالة جسد السيدة الجليلة، ثم صفقت يديها ضاحكة طالبة من نعمان أن يروى لها شيئًا.

بالطبع لم يقص نعمان شيئًا عن مقتل أحمد ماهر باشا فى البهو الفرعونى الفاصل بين مجلسى النواب والشيوخ أثناء توجهه

---

(١) القريللا: نبات من الفصيلة الزنبقية ينمو بكثرة فى حقول الصعيد الأوسط وسط البرسيم والقمح، زهوره صفراء ورائحته زكية، ويأكله بعض القرويين.

لإعلان الحرب على أدولف هتلر وآخرين، كما لم يقص شيئًا عن إغلاق دكان سليم الخربان، أو حادث قيام الحاج زاهر بحلاقة شارب أحد عمالقة بحرى البلد بعد أن أسقطه واعتلى جسده فى الشارع، أو ما أشيع فى القرية من انتواء الشيخ أحمد عبدالمجيد التخلص من العمامة والقفطان ليرتدى الجاكتة والطربوش تمهيدًا للزواج من مصر، ولا حتى حادث المرأة التى عاشرت قردًا فى المقابر، لكن نعمان ـ فيما يعتقد ـ وبتسهيلات من السيدة نفسها: قص شيئًا عن سرقة قلقاس، وإشعال نار فى قصب، ووصف مفصل لعينى ثعلب أو ذئب، وتورم فى ساق أم نعمان، وغرق قارب فى بحر يوسف، وأطول قرموط سمك رآه طوال حياته.

وظلت السيدة الجليلة منتشية، تدور حول نعمان مشجعة حانية حتى غمرها صمت.

الشىء الذى أدارته السيدة الجليلة فى جناحها ليبعث موسيقى شجية لم ندرك كنهه حتى اليوم، قيل إنه ماكينة غناد وقيل إنه مذياع. وقيل إنه تركيب سحرى من تلك التركيبات التى تركها أبونا عبدالقدوس فى المنزل أثناء محاولاته المتكررة لإتاحة فرصة الإنجاب للسيدة الجليلة، غير أن الموسيقى انهمرت حتى هزت جسد الصبى وأثارت نشوة فى الجناح كله، ثم لم تلبث السيدة الجليلة أن شاركت فى الإيقاع الموسيقى بالتصفيق العذب ساحبة نعمان وسط الباحة المخملية، وعيونها الواسعة الثرية تتغمض وتتفتح سعيدة يقظة، فلم يلبث نعمان أن وقع تحت سطوة السحر الخلاب، فارتفعت ذراعاه وثنى وسطه العارى، والسيدة تدور حوله وقد زمت شفتيها.

لم يعد ممكنًا بعد ذلك رصد كل ما حدث، أقوال عن ارتفاع ذروة الرقص حتى خلعت السيدة الجليلة رداءها الشفاف واحتضنت نعمان ممتزجة بجسد ليسيل العرق حولهما محدثًا انكسارًا فى أضواء الكلوب، أقوال عن بكاء تشنج للسيدة الجليلة الراكعة أسفل جسد نعمان ممرغة رأسها أسفل قدميه، أقوال عن تقبيل متوحش شبق لكل قيراط فى جسد الصبى، أقوال عن جموح هائج فاتك، أقوال عن لحظات هادئة ضمت فيها السيدة الجليلة جسد نعمان وأراحته فوق فخذيها طالبة منه النعاس.

والوحيد الذى يمكنه أن يساعدنا فى استجلاء الأمر نفسه هو نعمان، لكن نعمان ـ كما اتهمه الشيخ ثابت عبدالرحمن ـ مصاب بداء الصمت الذى أودى بحياة أبيه عبدالحافظ خميس، وهو الداء نفسه الذى جلل بالعار حياة أناس فضلاء، فلم يستطيعوا التوصل إلى التنسيق بين ما حدث وبين تلك الصورة الموجعة التى وجدوا عليها الصبى وهو يجرى فى أعقاب تلك الليلة عاريًا صارخًا فى دروب القرية، والكلاب تنبح خلفه، والناس يطلون من وراء أبواب الفجر، رافضين التنبه لما يحدث، وذلك أن نعمان كان قد اخترق القرية كلها حتى وصل إلى أول شجرة سنط على حافة الجرف، وعندما لمست قدماه أشواط الشاطئ أحس بارتجافة العودة للأمن المطلق، ذلك الذى أعاد نعمان إلى متن حياته، ثم لم يلبث نعمان أن ارتكز على جذع الشجرة مصغيًا إلى صرير الجنادب لترتخى أعضاؤه العارية.

فصل وسيط

لكى أكون عادلاً: أتحفظ فى قبول المقولة المزعجة التى أطلقها بعض الأوغاد ضد سلسال خميس - ونعمان واحد منهم -، والتى فيما يعتقد تعنى أن آل خميس قوم بلا بصيرة (عندما يعثرون على صرة من الذهب: يفكون الصرة القماش ويختلسونها تاركين الذهب[1]، وإذا كان أحدهم يلجأ للمرابين ليحصل - فى أيامهم هذه - على جوال كيماوى يسدد ثمنه أضعافًا وعلى أقساط، ويقوم ببيعه فى الحال مقابل نصف ثمنه الحقيقى كى يحصل على المعسل والشاى، فإن ذلك - دون نفيه - لا يعنى أكثر من كونهم أفرادًا لم تتح لهم فرصة

---

(١) من المعتقد أن الشيخ ثابت عبدالرحمن هو الذى وصف آل خميس بعمى القلب، وقيل إن الشيخ ثابت وصف آل مستجاب بهذه الصفة، غير أن التجارب أثبتت أن هذه الصفة يمكن إطلاقها دون توجس على عائلات أخرى.

التهذيب بالشكل الذى أحدثه عبدالعال جفناوى[1] فى أبناء عمومتهم.

ومن المؤسف أن نلجأ لهذا الأسلوب كى ننفى عن نعمان اتهامه المقلق بأنه أعمى القلب، رافضين أن ننحاز مع أمه ضده فور انتهائه من الفصل السابق، والذى عاد فى نهايته مرتبكًا - عاريًا - من قصر السيدة الجليلة، والجميلة أيضًا.

وقطعًا فإن أم نعمان سوف تظل موضع مساءلة دهرًا لهذا الرد الخشن الذى واجهت به وحيدها الواقف منهارًا على باب عشتها فجرًا، ردته بخشونة مثلما رد أبى سفيان رسول ابن أبى طالب القادم من المدينة داعيًا أمير الشام للدخول فى البيعة[2]، مصممة

---

(١) عبدالعال حفناوى: كان إخوته يعيشون فى كنفه تاركين له - وحده - مهمة ملكية الأرض والعقار، فقام بتزويج بناته بأفراد من عائلات أخرى غير عائلته، وقد ورث الأغراب كل العقار والأرض، تاركين عائلة المورث يعيشون على الكفاف.
ومن المهم أن نذكر أن معظم ما استباح الآخرون إرثه قد تبدد وبيع للجيل القائم من الورثة الأصليين.

(٢) وحتى بفرض أن أم نعمان قد صدر منها هذا الفصل فسيظل التشبيه يتضمن خطأ جسيمًا، إذ إن ابن أبى طالب - على - أسفر إلى معاوية فى الشام واحدًا من أصحاب رسول الله - ﷺ - هو جرير بن عبدالله الجبلى، طالبًا منه أن يدخل فيما دخل فيه الناس - وهو مبايعة أمير المؤمنين على بن أبى طالب، مدللاً بحجج وإثباتات من القرابة من النبى - ﷺ - والتبكير فى الإسلام والتضحية والكفاح والهجرة، وهى مسائل يكاد يخلو منها معاوية وأبوه، ولكن معاوية جعل يسمع من السفير ولا يقول شيئًا (وإنما يطاوله ويسرف فى مطاولته، ويدعو مع ذلك وجوه أهل الشام ورؤساء الأجناد مظهرًا مشاورتهم فيما يطلب إليه على، ويعظم قتل عثمان) أمير المؤمنين الراحل (ويحرضهم على الوفاء للخليفة المقتول والطلب بدمه). ومن المؤكد أن معاوية كان أكثر حكمة من أن يتعرض بالخشونة =

أن تعلن على رءوس الحقول - وفى صوت واضح ملتاع - أنها بليت فى زمانها مرتين: مرة بالزواج بـ «عبدالحافظ خميس»، ومرة بالإنجاب من عبدالحافظ خميس، متناسية أن نعمان - الواقف على مدخل العشة يرتعش - يقف أيضًا على أولى خطوات المراهقة، تلك الفترة التى أعطاها سيجموند فرويد اهتمامًا لا يقدر.

ولقد شهدت الحقول فى ذلك الفجر الخريفى حوارًا مؤلمًا بين أم نعمان الراغبة فى إلحاق وحيدها بمعية السيدة الجليلة كى يرفل فى نور الكلوبات واللحوم والأرز والشاى والبطاطس، وبين ابنها - محطم حلمها - ذاك الصبى الأحمق الذى يصمم على أن يترك الذهب دون - حتى - اختلاس صرة القماش، وفى النهاية لا تجد أم نعمان - تلك التى ستظل مساءلتها دهرًا - بُدًّا من صك وجه الملعون ابن الملعون بقطعة دسمة من الطين.

وهام نعمان على وجهه، هجر العشة ولم يعد للقرية، ساح وسط الحقول وتحت أشجار الجميز وبين فياقى العاقول والحلفاء وذيل القط، حاملاً فوق رأسه المحلوق، قرن الشعر وداخل رأسه - المحلوق - أشباحًا مزعجة ومثيرة لليلة السيدة الجليلة، تنتابه القشعريرة واللذة كلما قفز فى المياه أو تسلق جذوع الأشجار أو شد ذيول الأبقار، لكنه -

---

= أو الأذى أو الشدة للسفراء والمبعوثين، ويراجع فى هذا الشأن الجزء الثانى من الفتنة الكبرى للدكتور طه حسين، ومن المحتمل أن يكون هذا التشبيه قد دس من أفاقى المتدينين.

أبدًا ـ ظل هو نفسه ـ نعمان عبدالحافظ خميس الذى ينهى المسألة بوضع ذراعه تحت رأسه فى ظلال أية كومة بوص وينام.

نعمان عبدالحافظ لم يكن شريرًا، ما حاول قط أن يختبر قدرته على الإمعان فى عين الشمس، رايح فين يا نعمان؟ يضع كفه فوق عينيه ويميل دماغه للخلف ليتقى النظر إلى السائل، وقبل أن يجيب يطلب منه السائل أن يسحب الحمارة لتتخطى نقرة أو قناة، أو يساعد فى جر بهيمة إلى السوق، أو يسعى فى أثر جحش يقوم بتحميل السباخ، أو يقشر كيزان الذرة، أو يهش بقرة لتداوم اللف فى الساقية، أو ينيخ ناقة، أو يسلس قياد جاموسة ترفض الرضوخ لشب هائج، أو يبتاع الزاد والسجار لأنفار يعملون، أو يجيب على استفسارات لصوص المزارع، وحتى دون أن تبحث عن نعمان فسوف تجده بين يديك، فى المرج أو غرب الجسر، فى هواش أو الطويل، فى الكلبى أو الحسائى، تاركًا القرية العظيمة لتنشغل بأمورها: قتلت ينى صاحب الفرن وزوجة عزيز أفندى وعلى عبدالنظير وحسن البنا وسنيورة والنقراشى وفانوس وعبدالقادر طه وحسب النبى، أحرقت حقول القمح والقصب وأغرقت الفول ومزقت جثة وحيد عم رزق[1]، أفسحت ثلاثة أجنحة من مبانيها للبيوت السرية متعة وانبساطًا، وقفت مرة مع الأحرار الدستوريين ومرة مع الوفد ثم انقسمت بين

---

(١) اختطف أحد النبجاء طفل عم رزق الوحيد الذى رزقه الله به فوق خمس بنات، واحتجزه فى حقل قصب لحين دفع الفدية وقد باع عم رزق جملاً وبقرة وأوانى نحاس ـ تحت سمع وبصر القرية ـ ليفدى طفله، وبعد دفع المبلغ تبين أن وحشًا قد فتك بالطفل.

الأحرار والوفد فزاد عدد القتلى، وظل الشيخ الشناوى يوزع الأنصبة والدمار والمكائد فى بيوت القرية بالقسطاس، وأم نعمان جالسة فى عشتها تنعى حظها المكلوم، ونعمان يسعى وسط الحقول يحمل الزاد ويهش البهائم ويجر ذكريات زاعقة عن ليلة السيدة الجليلة، يبيح لنفسه أحيانًا أن يمد أصابعه إلى فخذ أنثى فى سرابة قطن، أو يقفز خلف صبية فوق ظهر أتان حائلاً دون سقوط الصبية فوق الجسر، أو يسمح لجسده أن يحتك بجسد امرأة يرفع معها جرة ماء، أو يتغافل عن إغلاق عينيه حين تنحنى إحداهن لتجمع سواقط سنابل القمح، لكنه ـ والحقيقة تُقال ـ لم يكن أبدًا مثل «دياب» ذلك الذى وردت سيرته فى رواية ظهرت فى الخمسينيات ـ والذى دأب على معاشرة الدواب[1].

يلوح لى أن الخطر الحقيقى الذى يطارد استقرارنا أن الرب بدأ الحكاية معنا بصفتنا صيادين ـ أو رعاة، ثم أنهاها بعد استدراجنا لنصبح فلاحين، لقد كان الأمر يحتاج إلى فطنة أكبر كى نفهم اللعبة، فقد حاصرنا الجبل ـ فى الأحقاب القديمة ـ فزحفنا إلى الشواطئ وغابات ذيل القط وأحراش السنط وآجام النخيل والبيوت، غير منتبهين إلى أنه لم يعد باقيًا لنا من الحكاية كلها سوى مجموعة من المحظورات والتحذيرات والوصايا، بدءًا من تجنب السرقة وانتهاء بمراعاة النوم مبكرًا والاستيقاظ مبكرًا، مع

---

(١) دياب أخو محمد أفندى فى رواية الأرض التى ألفها عبدالرحمن الشرقاوى، كان نهمًا ساذجًا يحب الطعمية ويمارس عمليات شائنة مع الحيوانات، وقد قوبل سلوكه باشمئزاز فى المنطقة الوسطى من الصعيد.

ملاحظة لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد، مرورًا بحق الجار والزنا ومسك السيرة ورمى المحصنات والصلاة والزكاة وما شابه ذلك من أمور.

لكن نعمان لم يهتم، ألقى بكل منجزات التاريخ خلف ظهره وظل سائرًا، يتجول فى الحقول ويؤم تجمعات جنى القطن وحصد القمح ودق الذرة، ينسل إلى المساجد والأفراح والمآتم والأذكار والغوازى، حتى تنبه ذات يوم ليجد قدميه تقودانه إلى إسماعيل الحفار.

والحفار ـ إسماعيل ـ رجل قليل الكلام، يحفظ عن ظهر قلب مواصفات كل الجثث ـ والأجزاء ـ التى دفنتها قريتنا منذ حفر سيدنا يوسف بحره الشهير، ينقلب قبلى البلد على بحرى البلد فيقف إسماعيل الحفار على مدخل المقابر منتظرًا ويدوى الرصاص والصراخ وتشتعل النيران فيظل يشعل السجاير مهدّمًا بنظره فى الجو، وفى آخر النهار ـ أو فى الصباح التالى على أكثر تقدير: تصل البشائر ملفوفة بالأكفان محمولة على الأعناق تتردد خلفها أنشودة الاسترحام المقتطفة من بردة البوصيرى.

وعندما وقع ظل نعمان على وجه إسماعيل الحفار الراقد على تراب حافة نهاية القبور حاجزًا الشمس، وعندما تحرك الحفار مستقبلاً نعمان، كان الجو صائفًا، وكان الحفار قد ابتسم فى بطء، ثم أعتدل وأشار إلى نعمان أن يجلس، فأحس الولد براحة.

فى اليوم الأول ساعد نعمان إسماعيل الحفار فى رش المياه أمام مقابر بعض النجباء الذين يهتم وارثوهم براحتهم، وفى اليوم الثانى

سقى الصبارات لذوى المكانة، وفى اليوم السادس شارك فى فتح فوهة قبر، وفى اليوم العاشر أنزله إسماعيل الحفار من الكوة العليا لمقبرة مستخدمة حديثًا كى ينزع بعض الأكفان.

وفى اليوم المائة سحب إسماعيل الحفار نعمان فى يده، وظل يتجول به بين المقابر شارحًا ظروف تضخم مقبرة، حتى أوقفه أمام مقام مخلوع الأبواب مرسوم عليه أحصنة وبواخر وطائرات وجمل، وظل نعمان ثابتًا أمام المقام حتى هزه الحفار ضاحكًا:

هنا يمكن لك - يا بنى - أن تقضى الليل.

فاجتاح نعمان شعور جياش من العواطف، أحس بعدها بأمن واستسلام وسلام، فقرر أن يعود ليزور أمه.

[illegible]

[illegible]

[illegible]

في اليوم الأول [illegible]

[illegible] وفي اليوم الثاني

فصل فى المقبرة الخاوية

أى مؤرخ سوف يصاب بالفزع والارتباك حينما يكتشف أن بطله - حامل نظريته - يخفى عنه أمورًا بالغة الخطر، وقد يؤثر الكشف عنها فى متواليات التحدى والاستجابة التى فيما يقال - تحكم حركة التاريخ، وبل ويعرض النظرية كلها للدمار.

فقد ظللنا طوال الفصول الماضية نعتقد أن قرن الشعر المتموج لقراعة نعمان مجرد (نذر) مطلق للشيخ الفرغل لن يحلق إلا مقابل ذبح جدى على عتبة المقام، واستمرت الأمور كلها تساعد فى تغذية هذا الإدراك المحدود، أم نعمان فى عشتها تدفن المها فى ثنايا كفاحها الدائب حول شواطئ بحر يوسف محاولة أن تضيف إلى تجارة الملوحة والبلح الصائف وحلوى العسل نوعًا من الأدوية كالهندية والششم، والسيدة الجليلة - والجميلة أيضًا - لم تبح لأحد - قريبًا أو غريبًا - عما قد يكون استرعى انتباهها فى ليلتها العابثة مع نعمان، والحلاقون كلهم - بدءًا من الحاج ياسين وعيد إلى

عبداللطيف وموسى ـ لم ينبهوا أحدًا إلى العلاقة بين نذر قرن الشعر وأى إجراء آخر، ونعمان يتحرك من فصل إلى فصل ويلج الحقول والتجارب والقنوات والبيوت ويقفز فى الترع ويصطاد السمك ويتسلق الأشجار دون أن ينبهنا ـ هذا الوغد ـ إلى ما يعنيه قرن الشعر حتى كبر ـ نعمان ـ ونمت أرنبة أنفه وغلظ صوته واخشوشنت عضلاته ونبت شعر شاربه، وشيوخ القرية ـ وساداتها ـ يقطعون الوقت فى الحديث عن كامل تامر وشوقى تامر وسمعان القمص وحرب فلسطين وأنور موسى والشيخ الصباغ والغوازى وراديو أنور الشريف، تاركين نعمان مصاحبًا لإسماعيل حفار ـ أو فحار القبور، حيث ـ وببساطة شديدة ـ نجد نعمان قد انتهى إلى الإقامة فى قبر مجهول له مقام بالغ الأناقة موسومة جدرانه بمراكب وخيول وطائرات وبواخر وجمل: جمل يمكن لك أن تسمع هديره على مسافة سبعة مدافن.

المؤسف حقًا أننا كدنا نساير نعمان فى حياته بين الأكفان والأحزان والمراثى، لولا أن ساق لنا القدر امرأة من نجع مجاور حكم عليها غلاة الأسياد ـ علاجًا لتورم فى الإليتين واحمرار ملتهب فى ملتقى الفخذين ـ أن تدفن نفسها فجرًا فى رمال قبر مهجور، ثم ترش الملح حين طلوع الشمس تسعًا وتسعين مرة.

وإسماعيل الحفار يعرف هذه المرأة جيدًا، ومن المحتمل أن يكون قد تقاضى منها أجرًا ليدلها على مكان الشفاء، وقد جاءت عصر يوم من الأسبوع الثالث من شهر أبيب عام ١٦٦٨، حاملة تحت

إبطها صرة قماش ومطواة وإناء فخار، فقادها الحفار بين دروب البغيلى ـ وهو الاسم الرسمى لمنطقة دفن الأموات ـ حتى وصل بها المقام المهجور؛ حيث كان يجلس أمامه نعمان يجدل حبلاً من الليف.

فى البداية شعر نعمان بوجل من المرأة ذات العيون المكسرة، اعتقد أنها تبحث عن مقبرة عزيز تبغى أداء واجب الترحم على ذكراه، ثم اعتقد أنها واحدة من تائهات القرى ضلت الطريق، ثم اعتقد أنها غجرية وفدت من الصحراء لتبتاع ضلوع الموتى كى ترصد فوقها (الأعمال).

فلما أوضح له الحفار إسماعيل هوية المرأة ازداد نعمان وجلاً، إذ كان يفكر من أيام قليلة فى زيارة أمه، وعاقه عن المهمة التناحر الذى شب بين بحرى البلد وقبلى البلد وقطع على السابلة الطرق، وقد حاول نعمان أن يهرب، لكن إسماعيل الحفار أعطاه ظهره وهو يلقى إليه بآخر تعليمة:

ـ جهز المربع.

تنص التوجيهات الخاصة بالدفن العلاجى على الآتى:

١ ـ يحدد مربع (متساوى الأضلاع) على رمال ناعمة لا حصى ولا جير ولا نفايات فيها، بحدود من جريد ذكور النخيل غير منزوعة السعف، (ولعلاج الصغيرات تنص التعليمات أن يكون جريد ذكور النخيل ذا سعف أبيض: أى من قلب النخيل).

٢ ـ تتلى على كل ضلع سورة الصمدية وآيتان من (الحديد) وآيتان من (التوبة).

٣ ـ يرش المربع بالماء ويترك حتى يجف.

٤ ـ يقوم المريض بنفسه بحفر الحفرة على أن يكون اتجاه الرأس:

(أ) فى الليالى القمرية:

ـ جنوبًا للرجال وكبيرات السن من النسوة.

ـ جنوبًا مع الميل شرقًا للشباب والأرامل.

(ب) فى الليالى المظلمة:

ـ لا يهم الاتجاه حيث يقوم الأسياد بتعديل الوضع بالشكل الذى يفيد العلاج.

٥ ـ لا يجوز أبدًا البدء فى الحفر بعد غروب الشمس كما لا يجوز تحديد المربع بجريد النخل قبل الغروب.

٦ ـ لا يجوز استخدام جريد نخل يابس أو منزوع السعف.

٧ ـ يبدأ الدفن فى منتصف الليل، ولايساعد على إهالة الرمال على المعالج كافر أو مشرك أو من يدخل اسمه حرف (ش) أو من اتهم فى قضية زنا أو من مات له أبناء، أو من لم يختن.

وقد انتهى نعمان من إعداد المربع فى الوقت الذى جلب فيه إسماعيل الحفار جريد النخل، المرأة جالسة ـ على مؤخرتها ـ فى ركن من أرضية القبر تدعو لهما بالسلامة والستر، مراعين تمامًا كل توجيهات العلاج الشائعة فى المنطقة وإن كان ثمة فروق يسيرة

فى بقاع أخرى عن الاتجاه وطريقة إهالة الرمال وارتباط بداية الوأد فى الرمال بظهور بنات نعش فى السماء.

ثم أذن إسماعيل الحفار للمرأة أن تبدأ فى إعداد مدفنها، فمدت يديها إلى مركز المربع، ترفع الرمال بين كفيها وتخطو فوق سعف النخيل حتى تكومه بجوار حوائط القبر، فلما أرهقت خلعت جلبابها الأسود وأعدته بشكل يصبح صالحًا لرفع الرمال، والظلام يلف القبر، نعمان وإسماعيل جالسان على الباب يتسامران.

لا نعرف لماذا بكت المرأة حينما انتهت من إعداد الحفرة، فقد كانت خاضعة للمواصفات، وقد مدحها إسماعيل الحفار حينما بدأ فى سبر غور الحفرة والكشف عن أى عيوب فيها، ثم أعلن إسماعيل الحفار صلاحية الحفرة للعلاج، طالبًا من المرأة النائحة أن تخلع باقى ملابسها، فنهضت مرتبكة وظلام القبر يغطى حركتها، غير أن الظلام لا يهم، فالعلاج أهم من الظلام، وإذا كانت هذه هى التجربة الأولى لنعمان فهى التجربة الألف لإسماعيل الحفار، لذلك فقد سار الحفار إليها، رفع ذراعيها إلى أعلى ونضا عنها جلبابين وسراويلاً، وأمر المرأة أن تكف عن النحيب.

كل شىء واضح فى الظلام، انعكاسات هزيلة لضوء النجوم يتسرب فيحيط الأجساد بحدود باهتة رقيقة، امتدت يد إسماعيل الحفار إلى جذع المرأة طالبًا من الله أن يجعلها خطوة مباركة متوسلاً للسماء أن تبدد عنها المرض، وامتدت ذراع نعمان إلى يد المرأة العارية بارتباك مرتعش مما حدا بالحفار بالصراخ فيه،

وأخطأت المرأة بأن تحركت بقدمه اليسرى فأعادها إلى الخلف كى تبدأ الخطو بقدمها اليمنى، والليل الرمادى يلقى بالأشعة الواهنة على كتل المكان فيضفى على الدنيا صمت الآخرة.

وعندما أصبحت الإجراءات المبدئية صحيحة، ونجحت المرأة فى الوصول إلى بداية الحفرة، أمالها الحفار إلى الخلف مستندة إلى ذراعى نعمان، وبدأت تنسل بساقيها إلى العمق، وجزء من سورة يس ينهمر من فوهة الحفار فيصنع أسوارًا عالية من الحماية والأمل والتقرب إلى الملائكة وإبعاد الشياطين؛ حيث استرخت المرأة فى الحفرة، ولم يعد باقيًا خارجًا سوى رأسها الحزين الواجف المهتز، حينئذ طلب الحفار من نعمان أن يبدأ فى إهالة التراب على الجسد المقروح.

فى حرص ودأب بدأ نعمان وأد المرأة، جلب رمالاً فى جلباب المرأة المخلوع وطمره على الساقين، أمره الحفار أن يتلو شيئًا لكن نعمان اعتذر لعدم درايته، فاضطر الحفار أن يتلو بمفرده على رأس المرأة، حتى غاصت السيقان والفخذان والبدن والصدر، وأحست المرأة باختناق فعرف نعمان أن الشياطين تجاهد للخروج، وعطست المرأة فأصبح يقينًا أن العلاج يسير فى الطريق المرسوم، بعدها أمر الحفار نعمان أن يسوى أرض القبر حتى لا تتأذى الملائكة، فخلع نعمان جلبابه كى لا يعوقه عن عملية التسوية، وجسده يتصبب عرقًا، وانحنى ببقايا جريدة نخيل يسوى المكان ورأس المرأة المخنوق يتوسل إلى الله أن يمنّ عليها بالشفاء، وهام على المكان ركود

وصمت مهموس مغموس فى ارتجافة آخر الليل الرطبة، حتى أقعد نعمان فى النهاية بجوار رأس المرأة...

والأكثر حرجًا أن صرخة رأس المرأة المخنوق لم تصدر نتيجة لدغة ثعبان أو عقرب أو اجتياح شيطان أو وخزة ملاك، بل جاءت نتيجة إمعان مرهف من عيون الرأس إلى جسد نعمان، قد تنبهت الملعونة إلى ما لم ينتبه إليه المؤرخون والمهتمون، تنبهت إلى قرن الشعر الواقف كنبات عش الغراب فوق قراعة نعمان، سألته - من توسلاتها - عن أمه، وعن أبيه، وعن الشيخ المنذور إليه حلاقة قرن الشعر؛ ثم: فى صمت مرعوب لفت رأسها حتى استطاعت عيونها الكليلة أن تحاصر - فى الظلام - الكليل - أفخاذ نعمان، وهمست:

- اوعى يا ابنى تكون مش متطاهر؟

هنا وقفت العفاريت فى ظلام المكان تعيث فى القبر فسادًا، فقد أعلن نعمان أنه فعلاً لم يختن، وأن قرن الشعر مرتبط بعملية الختان، وأن كل الناس يعلمون ألا قرن شعر لمن سبق ختانه، فظل رأس المرأة يرتعش ويهتز فوق الرمال رافضًا الرضوخ لكل قراءات إسماعيل الحفار وتوسلاته للجن، ثم اجتاح الارتعاش باقى الجسد المتخبط الموءود فى رمال القبر، حتى انزاحت الرمال متحولة إلى غبار شيطانى عربيد والخوف يهز نعمان وإسماعيل والأحجار وسعف النخيل، صرخة أولى وثانية وانهمار استغاثات مرعبة، فقد كان محرمًا على من لم يختن أن يشارك فى الوأد أو إهالة الرمال، وأصبح الموقف حرجًا، وحاول إسماعيل - بكل تماسكه - أن يحول

بين المرأة والحركة، غير أن الشياطين كانت قد فتحت ثغرة فى الهدوء، وانخلع الجسد من بين طيات الحفرة، قويًا صلبًا عاريًا دامى المؤخرة صارخًا، ولم تلبث المرأة أن شقت الطريق هائجة، قزت من الباب إلى الدرب إلى شواهد القبور، تتخطى الحواجز والأحجار وجذوع النخيل، وصوتها الممسوس يلف الكون ويهدم أعالى الشجر ويقلق الموتى ويعذب الملائكة، والخطيئة تلتف حول نعمان الفاغر فمه يحاول أن يستر جسده بيديه، والحفار يجرى مرة وراء الجسد القافز الهائج ويعود مرة إلى نعمان ليسبه ويركله ويضربه فى بطنه، والنجوم استدرجت بنات نعش للاختباء من الشياطين، والقرية نائمة لا يقلقها ـ الصراخ أو الخوف أو الهلع، غير راغبة فى الاستيقاظ من أجل نعمان أو المرأة أو إسماعيل، عدا كلب أو كلبين: نبحا قليلاً ثم عادا فصمتا إنصاتًا، ثم لم يلبث أن عاد الهدوء فغمر الدنيا لفجر يحتمل أن يقترب، دون اهتمام بهذا الارتباك الذى أصابنا حينما اكتشفنا أن نعمان ـ حامل نظريتنا ـ يخفى عنا أمورًا لها مثل هذا الخطر.

فصل فى الختان

لعل أول من بدأ حوارًا جديًا فى شأن ختان نعمان قريب لأمه يعمل فى مجال تسويق بيض الدجاج فى أعقاب وباء فتك بدواجن المنطقة فى صيف عام ١٦٦٨ قبطية، والذى كان - فيما يعتقد - يعد العدة لمصاهرة نعمان، غير أن أم نعمان أوضحت لقريبها بعض العوائق التى تحول بينها بين اتخاذ إجراءات ختان ابنها، منها أن ختان نعمان موقوف على ذبح جدى، ومنها أن الأمر يستلزم تجهيز جلباب أبيض وطاقية مقصبة، ومنها أيضًا نذرها السابق والمؤكد بإجراء الختان على عتبة مقام الشيخ الفرغل الذى يبعد عن القرية مسافة تزيد على الثلاثين كيلو، ومنها أنها قد نفضت يديها عن نعمان الآبق واعتبرته قد غرق أو أحرق أو مات، وبكت أم نعمان حينما وصلت إلى المقطع الأخير من عوائق ختان نعمان، غير أن قريبها أخذ يفند فى روية محاذير أم نعمان، وأوضح لها أن رضا الأم، من رضا الرب، وأن ما أشيع عما حدث بين نعمان وبين سيدة

المقابر مؤشر لسخط الله على نعمان المؤسس أصلاً على سخطها هى، فلما هزّ قلبها وبان فى عين أم نعمان مليها إلى الصفح عرج إلى المسافة الفاصلة بين مقام الشيخ الفرغل وبين مقام أم نعمان، حيث ضغط على أن الأعمال بالنيات، والدين يسر، ومن استطاع إلى المقام سبيلاً، كما أن للشيخ الفرغل ـ ولابد أن الجميع عالمون ـ علمًا لا حدود له برغبات محبيه، ثم اندفع إلى الذبيحة، فقص لها قصصًا ـ وهى أسانيد مؤكدة ـ عن قبول الشيخ الفرغل لنذور كانت ـ فى البدء ـ عجولاً وجمالاً، استحالت ـ لظروف طارئة ـ إلى دجاج وأرانب، وأن الشيخ الفرغل أكبر من أن يغضب على محبيه بسبب تقلص قدراتهم، يكفى النية والرغبة الشريفة، حينئذ أصبح أمام مذلل العقبات عائق الجلباب الأبيض والطاقية المقصبة، هى أمور لا تصلح فيها النيات والرغبات الشريفة، إذ إن أى حلاق ـ لن يمد الموسى إلى قلفة ذكر إلا إذا كان مرتديًا مسوح الختان، فاضطر قريبها أن يعترف بألا مناص من ابتياع جلباب أبيض وطاقية مقصبة على أن يترك له تدبير ليلة كبيرة من ليالى المشايخ سواء فى القرية أو أية ناحية قريبة أخرى.

بدأ الاستعداد لختان نعمان فور المصالحة التى تمت بينه وبين أمه والتى شارك فيها إسماعيل حفار القبور وعيد المزين والقريب المتخصص فى تسويق بيع الدواجن، وقد أمكن لأم نعمان شراء قماش الجلباب والطاقية من عبد الودود الأخنف أقدم تجار القماش فى القرية وأكثرهم أصالة، وقام أمين الخياط بإعدادهما

مقابل ربع قمح، كما قام عيد المزين - مخلصًا - بالحصول على الفتوى بإمكان إجراء الطهارة لنعمان على عتبة مقام أقرب شيخ كبديل للشيخ الفرغل المقيم فى آخر قبلى الدنيا، وأعد إسماعيل الحفار جريدة مضفرة السعف، كما أهدى إلى أم نعمان كمية من الحنة السويسى، حيث أصبح لزامًا - بعد ذلك - على أم نعمان أن تعود إلى بيتها - فى القرية - المهجور منذ ستة فصول، والذى لا يمكن لها أن تختن نعمان بعيدًا عنه، حتى يتسنى لها إعداد مخلوط البسكويت والفول السودانى والكراملة، لتوزعه على الأهل كضرورة للحصول على النقوط.

بعد جهود فائقة وترتيبات مفرحة قامت أم نعمان فى منتصف الليل بإعداد العدة للانتقال إلى مقام الشيخ أبى هارون المقيم فى نزلة أمشول، امتطى عيد المزين وإسماعيل الحفار - ومعهما أرنب كبير الحجم - حمارة الشيخ عبدالعزيز خليل، وامتطى نعمان - وخلفه أمه - حمارة جلجلة زوجة تادرس، ووضعا أمامهما سلة الكعك والبسكويت ورفعا - رغم الظلام - جريدة النخيل المضفورة كعلامة للمناسبة، واخترق الجمع الحقول والفيافى حتى أشرفوا على نزلة أمشول فجرًا، حيث كان مولد الشيخ أبى هارون فى عزّ انتشائه.

فور وصول القوم قاد إسماعيل الحفار الركائب وسط المولد ميممًا شطر المقام، محاولاً تفادى المحتفلين والذكارة، والحواة والباعة.

كل شىء على ما يرام: لف نعمان حول ضريح الشيخ أبى هارون المضاء بالشموع، ووهبت أمه قروشًا لخدم المقام والمتسكعين حوله، وفرش عيد المزين جوالاً، وزغردت أم نعمان فضاعت زغاريدها وسط ضجة المولد، ودعا على حجر، ورشت أم نعمان الكراملة فوق رءوس الناس، وذبح إسماعيل الحفار الأرنب على العتبة، وأخرج عيد المزين عدته، وقام المختصون بتبخير رءوس القوم بالمسك والروائح الطيبة، وتلا أحد القراء شيئًا من القرآن، وكان الصبح المبكر قد غمر الدنيا فبانت ارتجافة مرتعشة على وجه نعمان.

فى البدء كانت الحلاقة، حلاقة قرن الشعر الواقف منذ خمسة عشر عامًا فوق قراعة نعمان لا يمكن المساس بها دون الوفاء بنذر للشيخ الفرغل، ذلك الشيخ القائم بعيدًا كى ينوب عنه الشيخ أبو هارون، وكلما طقطقت ماكينة يد المزين فوق رأس نعمان انهمرت الزغاريد والكراملة والبسكويت، وجريدة النخيل المضفورة السعف ملطخة بدم الأرنب تتراقص فى ذراع إسماعيل حفار القبور معلنة الفرح والسعادة، فترقص، والشيخ أبو هارون يغمر الجميع بالحماية والامتنان.

وعندما نجح عيد المزين فى إسقاط قرن الشعر وتهاوى ـ القرن ـ على الجوال المفروش، أباح للمحتفلين وقتًا وسيطًا للرقص والزغاريد، ثم طلب من إسماعيل الحفار أن يوثق بذراعيه نعمان من الخلف، حينئذ اهتز قلب أم نعمان، متذكرة عبد الحافظ خميس، زوجها، فارسها قريبها رجلها، ذلك الذى رحل منذ أعوام بعيدة دون

أن يحظى بحضور احتفال القوم بختان ابنه، فبكت أم نعمان، نهنهت لتضفى على الضجة حزن الأم والزوجة، فأسكتها عيد المزين بكلمتين مواسيتين، بعدها قام إسماعيل الحفار برفع ملابس نعمان حتى وسطه، وأجلسه بين أحضانه فوق الحجر، وتغلبت أم نعمان على بكائها وقلبته إلى زغاريد، وعادت إلى رش الكراملة والبسكويت فوق الرءوس.

صرخ نعمان حينما أوثقه إسماعيل الحفار من الخلف، لافًا ذراعيه حول عجزه وساقيه حول فخذيه، وبدت أعضاء نعمان واسنة لا تدرى أن ثمة اغتيالاً سيحيق بها، وقرأ عيد المزين الفاتحة والصمدية ودعاء أن يتولى الشيخ أبو هارون تزويد الشيخ الفرغل بتفصيلات تقديم النذر وأخرج الموسى وظل يسنها ونعمان منفرج الأعضاء موثق الجسد، ثم امتدت يده المدربة إلى قلفة نعمان، فانسحبت القلفة اللحمية المرنة حتى كادت تنخلع فى أصابع المزين الخبير، وظل عيد المزين يدعك فى القلفة، ثم يسحبها وسط صراخ نعمان وزغاريد أمه ودعابات إسماعيل الحفار، بعدها، أدخل المزين عودًا من الخشب فى عضو نعمان لتمتد عليه القلفة، وشرع موسه الحادة، لتقطع الجزء الأول من القلفة، ولتتلقفها أم نعمان فى قطعة قماش كى ترفعها وترقص بها، وينبثق الدم قانيًا، وتعود التالية، غير أن صوتًا آمرًا يوقف أصابع المزين عن تلمس القلفة: أصابع عيد المزين مرة أخرى إلى القلفة فتسحبها خارجًا كى تقطع المساحة.

ـ الأسطى من أين؟

فيرفع عيد المزين رأسه وذراعاه ممتدتان متشبثتان بعضو نعمان...

ـ من ديروط الشريف... عقبال عندك!! لكن الرجل الغريب أعلن فى وضوح احتجاجه على قيام حلاق من قرية أخرى بإجراء ختان فى قريتهم، وأمر القوم أن يتوقفوا عن إتمام الطهارة، غير أن عيد المزين تجاهله ضاربًا باحتجاجه عرض أفخاذ نعمان، فانفعل الرجل محتجًا مرتين: مرة لخرقهم العهد المبرم منذ سنوات بألا يعتدى حلاق قرية أخرى على اختصاصات حلاقى قريتهم ومرة لإحساسه بازدراء عيد المزين له، وعاد الرجل الغريب إلى الصراخ فيهم، فتوقف نعمان عن التختين وأم نعمان عن الرقص وإسماعيل الحفار عن تشديد تكتيف نعمان من الخلف.

وظهر من وسط القوم من تعاطف وتضامن وعضد وجهة نظر الرجل، وحاول إسماعيل الحفار أن يمنح الغريب قروشًا، إلا أن الموقف تدهور بسرعة، فقد رفض الرجل أن يترك الأمور تسير دون أن يقوم أحد حلاقى أمشول بالختان، وبان من أسارير المتجمعين انتشاؤهم بها الموقف المتدهور، والدم يسيل غزيرًا بين أوراك نعمان، والقطعة الأولى من قلفة ما زالت بين يدى أمه الخائفة.

وقف عيد المزين ـ والموسى فى يده ـ ليوضح للرجال الظروف التى أدت بهم إلى التغاضى عن هذا التقليد، متوسلاً إليه أن يتركه ينهى مهمته، داعيًا له أن يقوم الشيخ أبوهارون ـ نيابة عن الشيخ الفرغل ـ بهدايته وإكرامه، ولا سيما وأن الختان قد تم ولم يبق

سوى التشذيب، فصمم الرجل ـ متشددًا ـ على موقفه، ليكون الموقف كله درسًا لكل أهالى ديروط الشريف الذين لا يراعون الواجب، بل وأطلق قسمًا مغلظًا ألا يقترب أحد من المختون، وأخرج من صداريه مطواة وفتح سنها.

حينئذ بدا أن الأمر صعب المعالجة، فظل عيد المزين مغتاظًا لكنه عاجز عن التصرف، وظلت أم نعمان تسب مرة وتتوسل مرة، وحاول إسماعيل الحفار أن يهدئ خاطر الرجل، وحاول أفراد أن يستسمحوه، وحاول نعمان أن يقف، فشعر بالأمل يعاوده شرسًا قويًا، باكيًا، حينئذ اقترب مصلح وطلب من آل نعمان أن يقصروا الشر وأن يراعوا حلف اليمين وأن يرحلوا.

وعاد عيد المزين إلى عدته يجمعها، ولمَّ إسماعيل الحفار نعمان بين ذراعيه ورفعه ـ ملفوفًا بالجوال والدم والجلباب الأبيض والطاقية المقصبة ووضعه فوق الحمارة، وأم نعمان تهذى معلنة سخطها على تلك الفتوى الملفقة التى استبدلت شيخًا همامًا كالفرغل بشيخ هزيل كأبى هارون،...... ونعمان دكه الألم وبدأ أنين خافت يئز من فمه ومن بين فخذيه، وعلى أرض المأساة ترك القوم جريدة النخيل المضفورة السعف وجلد أرنب كبير الحجم وبسكوتًا مفتتًا ودمًا كثيرًا وقلفة جلدية غارقة فى الدم والتراب.

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

فصل فى إتمام الختان

كل شىء مرهون بإرادة الله، وإذا شاء الله لنعمان أن يختن فى مكة فلا عائق، وإذا شاء لنعمان أن يختن فى الطائف فلا حائل، وزام إسماعيل الحفار مصدقًا على السلوى الذليلة المنسابة فى فم عيد المزين، والحمارة أسفلهما قد أرخت أذنيها وعنقها وكاد منخارها أن يحتك بالأرض ونعمان - معتليًا الحمارة التالية - يستند بظهره إلى صدر أمه الهاشة الركوبة فى صمود صامت مكسور العيون وما بين الفخذين، وعيد المزين يثابر كى يخفف عن الركب مهزلة عدم إتمام ختان نعمان، موضحًا بين المرحلة والمرحلة شكه فى الفتوى التى دست إليهم مبيحة تغيير مسار النذر من مقام الشيخ الفرغل البعيد إلى مقام الشيخ أبى هارون القريب، والحمارتان تدوسان تضاريس المنطقة الشاسعة الفاصلة بين أمشول[1] وقريتهم تتخطيان النقر

---

(١) تقع أمشول فى آخر غرب الوادى، والمسافة بينها وبين ديروط الشريف تجاوز الخمس ساعات فوق ظهر حمار قوى وسريع، ويقطعها العامة مترجلين فى ضعف هذا الوقت.

وقطاع الطريق وتزحفان صعودًا فوق أكوام الخرط وأكتاف الجسور، وبين وقت وآخر ينزل عيد المزين من فوق ركوبته ويتجه إلى نعمان الغائب فى غيبوبة الألم - حيث يكشف عما بين فخذيه ليطمئن، ولقد نجح عيد المزين فى وقف الدم، مرتين بالبن - وثلاث مرات بالتراب الناعم، واضطر الحفار إسماعيل أن يشيد بفوائد البن والتراب فى وقف النزيف، وقص حكاية بنت أخته التى أنقذها البن ولم تمت إلا بعد أن استدرجه الحساد والجهال لنقلها إلى المستشفى، وبات من المؤكد أن ثمة حالات نزيف كثيرة نجح فى علاجها البن وروث الدواجن وتراب الفرن والشعر المحروق: روى بعضها عيد المزين وروى بعضها الحفار إسماعيل وروت بعضها أم نعمان[1]، ونعمان صامت صامد مسترخى مستلق على صدر أمه، ينهشه الألم كلما قفزت الحمارة أو توقفت أو اقترب منه عيد المزين كى يطمئن إلى مهزلة ما بين فخذيه، فيصرخ أو يتأوه لكنه يعود إلى السكون، وكلما تأوه أو صرخ ازداد إحساس الركب باليتم...، يتم حاد يرزح فوق الأعناق، ويهتز مع اهتزاز خطى الحمارتين، يتم حاد شرس لم

---

(١) يحتمل أن تكن حادثة بنت المرحوم الشيخ ثابت من تلك الأحداث التى وقعت فى تلك الفترة: إذ زوجوها فى التاسعة من عمرها وحملت فى العاشرة، ونزفت قبل أن تضع مولودها، فاستعانوا بمن يعالج النزيف الدموى بالتراب والتبن ومزق الملابس أربعة أيام متتالية، ثم نقلت عنوة إلى مستشفى البندر؛ حيث فاضت روحها أثناء محاولة وقف نتائج التهتك والتمزق، وتسلمها ذووها من المستشفى كمية من شرائح اللحم، ومن الغريب أن خال هذه الضحية - ذا السيطرة على سلوك أهلها - ناظر قديم بمدرسة القرية وقيل إنه ظل فترة من حياته يقرض الشعر، ويؤلف أناشيد الجهاد ضد الإنجليز.

يتأثر مطلقًا بهذه المقولة العظيمة التى حاول فيها أحدهم أن يروى وصفًا لرحلة يوسف النجار ومريم والمسيح من بيت لحم إلى الصعيد.

يقيض الله للناس دائمًا من يأخذ بأيديهم، من ينقذهم، من يرد لهم قيمتهم، من يمسح الدمع من العيون ويزيل الكمد من الصدور ويرفع الرءوس حتى تصطدم بكبرياء الملائكة[1].

عبد الحميد عبد العزيز[2] أو أخوه أحمد هو الذى اعترض طريق القوم فى مدخل قريتهم، فى البدء استفسر عما بهم دون اهتمام مؤكد عما بهم، وما كاد المزين عيد يروى للمعترض خلاصة الموقف الذى انتهى بطردهم من مقام أبى هارون دون إتمام ختان نعمان لاستخدامهم مزينًا غريبًا عن البلدة، حتى ناحت أم نعمان، بكت وعوت فبكى نعمان وعوى، وانهمر الدمع من العيون والدم من بين فخذى نعمان، وقفز الحفار إسماعيل إلى نعمان ليكشف عما

---

(١) من أقوال شيخ ضرير، وليس معروفًا على وجه اليقين ما المقصود بتعبير: (يرفع الرءوس حتى تصطدم بكبرياء الملائكة)، إذ إن مثل هذا التعبير لا يخرج إلا من فم متمرد تمردًا حضاريًا ينحو منحى الوجودية، والتمرد الحضارى نمط دخيل على مجتمع نعمان عبدالحافظ خميس.

(٢) عبدالحميد عبدالعزيز خليل: واحد من عامة قبلى البلد، يميل إلى الزعامة وقيادة الناس، ظل فترة فلاحًا، ثم اغتنى من التجارة فابتاع أرض آل غلاب؟ واستطاع - فى إحدى فترات التقلب - أن يصل إلى منصب رئيس الجمعية الزراعية، وهو رجل طيب يشعر بالولاء لأغنياء القرية ويتمنى التقرب منهم والدخول فى عالمهم عن طريق تسهيل مهامهم، وهو نموذج من تسعة نماذج فى ديروط الشريف يعشقون هذا السلوك.

بين فخذيه، فأحس المعترض - بكبرياء القرية - كلها ينزف فوق ظهر الحمارة فتغرق ملابس نعمان وبردعة الحمارة ملوثة بالبن والتراب، وتراجع المعترض إلى الخلف، وكأن التراجع يعطيه منظورًا آخر يعيد به الإمعان فى المأساة النازفة، وكلما خطا خطوة إلى الخلف تجمع الناس وأعادوا السؤال، وكلما أعاد الناس السؤال أعاد أحد أفراد الركب إيضاح أبعاد المصيبة وكلما أعاد أحد الأفراد إيضاح أبعاد المصيبة ولولت أم نعمان وانهمرت الدموع، وكلما انهمرت الدموع بدأ الدم من بين فخذى نعمان «يبزبز» متخطيًا سدود البن والتراب، حينئذ ولأن الله لا يحب أن يتجرأ أحد على كبرياء قريتنا، اكتشف الجميع - كل واحد - أن أمشول قرية ظالمة، لا تفهم الأصول والقواعد، وأن أمشول: سبق أن طردت أحدهم من سوقها، وأنها أخفت مجرمًا، وأنها أكلت حقوق تاجر، وأنها أعادت عروسًا دون جهاز، وأنها باعت نخالة مغشوشة بالتراب، وها هى أمشول الظالمة تعيد واحدًا من أبناء ديروط الشريف دون إتمام الختان.

كان عظيمًا هذا الموقف الذى وقفه عبد الحميد عبد العزيز - أو أخوه أحمد - حينما أقسم بالطلاق - وبصوت مدو لف أنحاء القرية وهيّج الغربان فى الحقول - أن لن يتم ختان نعمانٍ إلا فى أمشول، وإذا كان فى أمشول رجل فليخرج إليهم.

وبدأت ديروط الشريف تمور وتتلوى وتلقى فى الحقول بقدراتها العظيمة الكامنة فى البيوت والباحات والمقاهى والمساجد وبيوت الغوازى، ترتعش شرايينها وتنتفض طاردة من جوفها طاقات وقوى

تحمل البنادق والسكاكين والبلط والحراب، مؤيدة عبدالحميد عبدالعزيز - أو أخيه أحمد - فى المسيرة المباركة نحو أمشول لإتمام ختان ابنها، وابنها - نعمان - قد أفاق على الجموع الهادرة المخترقة حرارة الشمس وطين الأرض وزغردت أم نعمان ماسحة من عينيها دموعًا، وامتدت أيد حنون إلى مقود الحمارة لتعيد اتجاهها إلى أمشول، والرءوس مصوبة فى كرامة وإصرار نحو السماء، لتتحرك الحملة المسلحة فوق الطريق الطويل.

مشهود ذلك اليوم، مرفوع رأس القرية، شامخة كرامتها، ألف رجل - قيل - وألفان - وثلاثة آلاف ساروا فى هذا المشهد العظيم خلف حمارة نعمان، لا كلام ولا تفسير، فقط رحلة حمية وإصرار تخطت الترع والمصارف وبحر يوسف والمزارع والحقول، والمزين عيد يهرع بين كل مرحلة وأخرى ليطمئن على ما بين فخذى نعمان، ونعمان بعيون كليلة مغلقة يتابع يوم الحشر ويتأوه من الألم ثم يغفو، والقوم - صامتون - تتردد أصداء خطواتهم فى فراغ الحقول الشاسع وتصطدم بالجبل الغربى البعيد فتعود إلى آذانهم لتدفع فى الرءوس الدم والحمية والإصرار، حتى بانت بوادر أمشول ومقام شيخها أبى هارون المتخلى عن نعمان.

حينئذ أمر الزعيم عبد الحميد عبد العزيز - أو أخوه أحمد - الحملة أن تضع رحالها، وأن تتوقف، وأرسل إلى أمشول ليستدعى مسئوليها، ووقف مستندًا إلى ظهر حمارة جلجلة زوجة تادرس المترنح فوقها نعمان مسترخى الساقين مكومًا فى أحضان أمه.

لم نكن نعتقد أن قريتنا تحب نعمان كل هذا الحب، أبدًا، لم نتصور لحظة أن هذا الحب يمكن أن يترجم وبسرعة إلى هذا الجحفل المسلح بالبنادق والشراشر والسكاكين، وعلى أمشول أن تعيد النظر فيما ارتكبته، نعمان يتيم.. نعم، لكن ديروط الشريف قريته وبلده وأبوه، نعمان فقير... نعم، لكن ديروط الشريف عزوته وقوته وثروته، ولو كانت هناك ألف قرية وألف جيش لاستطاعت حملة نعمان أن تهزمها، ونعمان ـ صحيح مغلق العيون مفتت القدرة خائر مكسور ـ لكنه يقظ، يحس بحركة القوم حوله وبين فخذيه وفى إغلاقه العيون المتعبة، يحس بالتعاطف والود والحمية لكنه لا يلبث أن تنقل عروقه كميات مذهلة من الألم من مينائه المجروح إلى داخل رأسه فيعود إلى الأنين والإغفاء.

وجاء رءوس أمشول، جاءوا هادئين وبأيديهم سلاحهم، ووراءهم طابور طويل من شعب أمشول يستطلعون ويرون ويحاولون أن يفهموا.

كان الزعيم عبد الحميد هادئًا، حيا رأس الوفد وأخذه جانبًا، شرح له الأمر فى كلمات قليلة وعينه الرمداء تحوم حول الجيش.

لكن رأس الوفد ضحك، ظل يضحك حتى اهتزت البنادق فى الأيدى والبراعم فى الحقول، وهز رأسه فى هدوء وخبرة وهمس:

ـ الشيخ أبو هارون وحلاقو أبى هارون تحت أمر ابنكم..

حينئذ صرخ الزعيم عبد الحميد فى القوم باعتذاره، معلنًا تقديره الكامل لأمشول ورجال أمشول وأقسم بالطلاق ألا ختان لنعمان إلا فى ديروط الشريف... قريتهم العظيمة.

وطأطأت الحمارتان رأسيهما، وسار الجيش خلفهما، ونعمان مغمى عليه، يضج بالألم والسكون والارتياع، وعيد المزين يهرع بين كل مرحلة وأخرى كي يكشف عن الجرح المتورم بين فخذى نعمان ويهيل على الدم التراب، وعبد الحميد الزعيم يسير أمام القوم مرفوع الرأس.

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

فصل عن الأيام العظيمة

تورم ما بين فخذى نعمان واقتعد المنزل ـ فى القرية ـ أو العشة على شواطئ بحر يوسف والأحداث تترى سريعة متلاحقة: هوجمت حاجيات أمه مرتين، ومات الشيخ بكر إثر اقترانه بالزوجة الخامسة وبعد أن باع الأملاك والسيارة الجيب وافترش الأرض بجوار شهاوى بائعة الطماطم، وفتكت الدودة بزمام البلد من القطن وتركت الحقول حطبًا يتمايل مع ريح الخريف، وقاد عدلى طلبة عليمى مظاهرات طلبة مدارس البندر مطالبًا بعودة محمد نجيب، وثاب الشيخ إلى رشده متجنبًا ارتياد الأماكن الموبوءة فور هلاك ابنته، ونجح المستشار أحمد عبدالجواد فى انتداب أحمد عبدالمجيد الناظر للتدريس فى السعودية، واشترك محمود عبداللطيف مع آخرين فى تنفيذ اتفاق جنائى الغرض منه إحداث فتنة دامية لقلب نظام الحكم وذلك بأن شرع فى قتل قائد الثورة مطلقًا الرصاص عليه فى ميدان المنشية، وزارت الحاجة فجرة قبر النبى ﷺ للمرة الرابعة وبيضوا مدخل البيت بالجير

والرسومات، واستصدر الحاج حمدان حكمًا بالحجز والسجن على صديقه الأثير - والمريض - محمد مستجاب؛ حيث قضى الشهور الأخيرة معتقلاً فى المستشفى وفارق الحياة، واستمرت جريدة الأخبار فى نشر مغامرات وحيد رأفت ضد الملك فاروق الأول، وطلق الشيخ محمود على زوجته الثانية وأعاد الزوجة الأولى، ونجح عبدالقادر مرسى فى إنكار علاقته بالإخوان المسلمين وتم الإفراج عنه، ومات الشيخ عبدالجواد ذو الكرامات فقام مريدوه بتنصيب ابنه على أريكته، وأعلن عتاة البلد ونجباؤها تخليهم عن الوفد والأحرار والدستوريين وبدءوا يستعدون لرفع رايات هيئة التحرير، وأخرجت مدرسة المعلمين - الجديدة - أول فوج من المدرسين ذوى الملابس النظيفة، وأثار بيت معوض بعض العامة ضد بيت القمص فكادت أن تحدث كارثة، وارتفعت أسعار الحشيش والأفيون وبذور البرسيم والسمسم لينضم أفراد جدد لقائمة الأغنياء، وأغلق أنور موسى الشناوى عيادته البدائية ليلتحق بفريق صلاح أبو سيف القادم إلى البلدة لتصوير فيلم الوحش؛ حيث ظهرت صور أنور وجدى وسامية جمال وخلفهم بيوت ونخيل ورجال القرية فى الصحف السيارة، وحفرت الحكومة الشوارع المؤدية لقصور علية القوم لتمد مواسير المياه المكررة، وأهدى الحاج كامل ميكروفونًا لجامع الأمير سنان فظل يلعلع ليال طويلة، وأنشأت الحكومة الثورية وحدة مجمعة ومدرستين ومتنزهًا وسط البلد، وتوسع أولاد علام فى إقامة تجمعات الزار لعلاج ضحايا الجن،

واستمرت عوانس الأثرياء عوانس، وتوسعت الحاجة فيات فى عدد بيوتها التى تقدم المتعة للقادرين، وجرح اثنان فى مشاجرتين متتاليتين خلال التهافت على مراكز توزيع الدقيق الأمريكى، واشتبك عبدالله الغشيم ـ ذو الرأس الضخم ـ فى صراع مع المناوئين؛ حيث نجح فى شج بعض الرءوس، ومات الشيخ فؤاد عبدالناصر متأثرًا بلدغة عقرب هاجمته فى مخزن التبن، وانهار بيت حسان درويش فوق رأس ابنته العارية البيضاء ـ والتى كانت تستحم ـ ولم تصب بخدش واحد، وتحول أحمد عبدالعزيز إلى فارس يقتنى فرسًا بيضاء شهباء يدك بها الأرض وتثير بحوافرها الغبار فى وجوه القوم[1]، ورفضت المدارس قبول رمزى نجيب فقضى وقتًا يسرق البلح وثمار الخيار غير أن ذا حثيثة نجح فى إلحاقه بمدرسة لاهوتية ليتخرج قسيسًا، وماتت الحاجة فاطيما الموتة الأولى[2]، وصدر أول دستور مؤقت فى عهد الجمهورية، وظهر عفريت فى قبر الأنبا سراباموان، وعفريت آخر فى منطقة البغيل، واكتشف ذوو العيون الواسعة فضيحة فى الوحدة المجمعة،

---

(١) لابد هنا من التنبيه إلى ما حدث للفارس أحمد عبد العزيز صاحب الفرس الشهباء: فقد وقع خلاف بينه وبين أحد حقراء التجار لم يؤد التحية الواجبة للفارس! فقام أحمد عبد العزيز بقلع عين التاجر بحد السكين، ثم دفع تعويضًا وقضى ثلاث سنوات فى السجن، حيث توقف بعدها عن الفروسية حتى اليوم.

(٢) الحاجة فاطيما: كانت تقرض الناس بالربا، وترفض أن تمد يد المساعدة إلى أى من أبنائها! ثم مرضت وتشهدوا عليها بعد أن سلمت أبناءها ثروتها. غير أنها لم تمت، وعاشت فى ذل؛ حيث منع عنها أبناؤها أية معونة حتى ماتت الميتة الأخيرة؟والتعبير الصحيح: ماتت الحاجة فاطيما الميتة الأولى لا الموتة الأولى.

وأحيط مقتل واحد فى درب الهجالة بالكتمان، وتلاه إبراهيم غلة ذو الدماغ المنبعجة النحاسية.

البلد تمور وتتغير وتغلى وتتشكل ويتساقط فى ساحتها الضحايا والجرحى والجهال، ونعمان عبدالحافظ متورم ما بين الفخذين، يزوره عيد المزين ويحاول أن يجد بين أكداس الصديد أملاً فى وقف المأساة، ويتوقف عيد المزين فتلجأ أم نعمان إلى خبراء مداواة الجراح وكوائى العمود الفقرى[1] وكل جمعة تمر تزداد الجراح التهابًا ويزداد ضمير الأم تقرحًا وإحساسًا بالذنب لتركها نذر الشيخ الفرغل تائهًا على عتبة مقام الشيخ أبى هارون.

ذوو الدراية وضعوا خلاصة خبراتهم بين يدى أم نعمان، هواء البحر اليوسفى مسمم فلا بد من نقل نعمان إلى البيت القديم فى القرية، الشيخ الفرغل غاضب فأقامت خمسة أذكار - استرضاء ومثوبة - أداها خيرة فرق الذكارة فى المنطقة، ثلاث زيارات متتالية لمقبرة المرأة الممسوسة التى اكتشفت عدم ختان نعمان فى الفصل السادس؛ حيث رشت أمه الماء المملح المذابة فيه حبيبات الراسخت[2]، نقل نعمان على ظهر حمارة بيضاء وأتيحت له فرصة

---

(١) كواءو العمود الفقرى: خبراء فى كى عصعص العمود الفقرى بالأسياخ المحماة لطرد الشياطين والشفاء من الناسور أو الروماتيزم.

(٢) الراسخت: عند حك حجرى بازلت لفترة طويلة مع رش الهندبة أو بودرة الزنك تعطى مسحوقًا أحمر يستخدمه العامة مذابًا فى الماء لعلاج الرمد والجروح والدمامل.

المبيت أسفل ذكر نخل عقيم يعتقد أن واحدًا من الجان يتمركز فى قلبـه، قـام أولاد عـلام ـ ثلاث مـرات ـ بدق الزار ونصب الطاس لنعـمان طردًا للأرواح الشـريرة، أحـرقت أصـواف نعاج ووبر جـمال وشعـر ذيل خيل وغمس رمادها فى مياه بئر ارتوازى وعولج الجرح، غير أن الجرح ظل ينز بالصديد والألم والبؤس والمهانة.

ولقد اختلف الرواة حول الذى أبلغ السيدة الجليلة ـ والجميلة أيضًا بمأساة نعمان، قيل إن حاسدة لأم نعمان كانت تجد السلوى فيما حدث لنعمان عن طريق التعزى بمسك سيرته، وقيل إن مُبلِّغها كان واحدًا من أتباع أولاد عـلام، وقيل إن السيدة الجليلة سـمعت بالخبر عند اجتماعها بعلية القوم أثناء التمهيد لعقد أول مؤتمر لهيئة التحرير فى ساحة القرية.

غير أن المؤكد أن الأمر صدر من السيدة الجليلة بأن يحمل إليها نعـمان، حمله أحد الخفـراء الذى مات بعد ذلك مسـممًا بدقـائق الزجـاج المخلوط بأرز السمك، وعندما نـزلت السيـدة الجليلة إلى البـاحة وألقت نظرة على نعـمان بكت أم نعـمان عـذرًا وحـزنًا وألـمًا ومغفرة وقبلت يدها، وعندما رفع الخفير جلباب نعمان كاشفًا عما بين فـخـذيه صـرخت السـيدة الجليلة صـرخـة لم يسـبق لهـا أن صـرختـهـا منذ مـصـرع الزوج الثـالث أو الأول، وسـبت أم نعـمـان، ونعمان والخفير والجهل والشيخ الفرغل وتراب المقابر وأولاد علام، بعدها أمـرت السيدة الجليلة الخفـير أن يسرع بنعمـان على ظهر أسرع جحش ليعرضه على طبيب البندر.

كان الجو حارًا، مارس - ربما - أو بشنس - أو كيهك، وللمرة الألف يلتف نعمان عبدالحافظ بملاءة زردخان[١] أمام الخفير على ظهر حمارة جلجلة زوجة تادرس وخلفهما تهرع أم نعمان، ويخترق الجمع الكبارى والطريق والترع حتى يستوى على مدخل البندر، والنار تأكل ما بين فخذى نعمان فلا يستطيع - حتى - أن يتأوه...

غير أن الأمر سار فيما لم نحسب له حسابًا، فقد أوقف شرطى الحمارة ومنعها من اختراق شوارع البندر، وبعد إلحاح ودموع تمكن الركب من اختراق قصبة واحدة، حيث أوقف شرطى الحمارة - من جديد - كان الناس يزمرون وينشدون ويصرخون ويهتفون، وعاشت مصر حرة مستقلة ويحيا الأحرار ولتسقط الحزبية، وأى مكان لم يعد لائقًا كى يستتر الركب فيه، ثم لم تلبث الجموع الزاحفة أن احتوت الركب بحمارته وبدأت تتحرك به ومعه، وقام وطنى همام بتوبيخ الخفير، واستطاع أفراد ذوو دربة أن ينزلوا الخفير ونعمان، وأن يأمر هما بالهتاف والتصفيق، وأن يقف أحد الهاتفين على ظهر الحمارة معلنًا سعادته الصارخة بزيارة الضيف الكبير، وكان نعمان قد فقد القدرة على الحركة، فحملته أمه منتحبة على كتفها حيث ظهرت صورتها فى صحيفة اليوم التالى تقف وسط الجموع الهادرة أسفل لافتة من القماش تعلن أن ديروط ترحب بالسيد وزير الصحة.

---

(٥) الملاءة الزردخان: نوع من التيل - أو الكتان ينسج على أنوال.

فصل فى التمهيد لعقد القران

أزعم أنى فوجئت حينما بان لى أن فكرة زواج نعمان لم تكن بنت أيام التهاب ما بين وركيه، بل هى - فكرة زواجه - قديمة قدم الندوب التى تغطى ركبتيه والشقوق التى تنمق بطن قدميه، إذ (يسهل على من يؤرخ حادثة بعد وقوعها بعشرين عامًا أن يلم برعونة كل من كان طرفًا فيها[1])، والصدق يدفعنى إلى إقرار ظاهر المسألة، تاركًا باطنها للمتعمقين الرائين للأمور بعيون البحاثة والمثابرين الذين يسترخون مستندين إلى الحيطان بظهورهم استمتاعًا بدفء شمس شتاء أو بظلال آخر نهار صيف، قادرين على الفهم والتعليق والنقد والتشكيك والدعاية والتشكى والمرح، وباستثناء بعض الأمور الأخرى ذات الأهمية البالغة فإن فكرة زواج نعمان أثناء علاج ما بين وركيه بالسلفا والبنسلين[2] وأكاسيد الزنك تعد واحدة من أخطرها وأكثرها أهمية.

---

(١) لعبة الأمم: تأليف: مايلز كوبلاند (ص ٣٦).

(٢) يرتاح المواطنون إلى رش مسحوق حقن البنسلين على الجراح هروبًا من وخز الإبر.

ومـبلغ تلك الأهمـيـة والخطر يرجع ـ فى رأينا ـ إلى أن أحد مشاهير الجن أشار أثناء امتطائه امرأة فى حفل زار دورى إلى أن علاج ما بين وركى نعمان لن يتم إلا بامتزاج حلال بين دم نعمان ودم أنثى لم يسبق لذكر أن قاربها، وقد أهملت أم نعمان الأمر لضيق ذات اليد، ثم لم يلبث الأمر أن عاد ملحًا خلال المشاوير التى قامت بها بين قريتها وبين البندر ابتغاء الحصول على المراهم، إذ حادثتها امرأة من بيت أبى العيون مشهود لها بحصافة الرأى ورزانة الفكر، ثم حادثتها فى الأمر نفسه سيدة أتيح لها المتاجرة فى الجبن الأصفر الأمريكى الموزع على الجماهير من المستشفيات فى تلك الأيام، ثم لم يلبث أن أكد لها رجل يتاجر أحيانًا فى الشيح واللبان الدكر سداد هذا الرأى، فأعلنت السيدة أم نعمان ـ وهى جالسة حول راكية النار ـ أن ابنها ـ إذا ما كتبت له السلامة ـ سوف يقترن بأجمل جميلات البلد، بعدها مدت كفها إلى نعمان الملفوف فى الأغطية، وأراقت حنانها العظيم على رأسه ليستشرى الدفء فى الوجه المغمور داخل برد طوبة.

فى أمور الزواج وبيع البهائم ونية الحج والرغبة فى زيارة البندر والاكتساء والطلاق وفطام العجول يفكر الناس بصوت عال، وبالتالى فقد اكتشف من يهمه الأمر أن نعمان قد دخله العيش رغم ختانه المتأخر، وكل أنداده ـ من عاش منهم ـ أصبح رجلاً مسئولاً، الذى يعمل فى بيوت المعاوضة والذى يسرح فى الحقول بالبهائم فى مواسم تنقية دودة القطن والذى يتاجر فى الردة والنخالة، والذى يعمل فى مواسم تنقية دودة القطن والذى يقشر كيزان الذرة أو

عـيدان القـصب أو الذى يرعى الغنم أو يجرى وراء حـمـير نقل السباخ، هؤلاء غير من أتاح له رغد العيش أن يملك قطعة أرض[1]، ومقابل كل أنداد نعمان - ووراء حوائط البيوت - تكمن الإناث ذات الآذان البالغة الانتباه لكل همسة تتولد من حفيف نضوج سنابل القمح أو تفتح لوز القطن أو ثغاء حملان الضأن أو خوار عجول البقر، والتى تترجم فورًا إلى الرغبة العظيمة التى يقوم بعبئها أولاد الحلال تمهيدًا لإضافة رواق جديد يكون مقرًا لبيت العدل.

فى البدء كانت بنت ابن أبى المولى مرشحة للاقتران بنعمان، واستبعدت لظهور خنة فى أنفها، ثم كانت بنت ابن بيومى البناء واستبعدت لورودها من أصلاب أناس تقل فيهم خلفة الصبيان، ثم كانت بنت أخت أبى العيون، لكن معلومات مؤكدة أفادت بأنها خائبة ترتعش أمام الفرن فلا تحقق اتساعًا فى الخبز، ثم كانت إحدى حفيدات كاملة بائعة الدواجن، وكادت أن توافق أم نعمان على ترشيحها لولا إشاعة عن رائحة فمها، وبأن من كشوف الترشيحات أن إحداهن لا تملك مواصفات الحظوة بنعمان، فأحست أم نعمان بسعادة قصوى لصعوبة توفر من ترقى إلى الحصول على موافقتها، وبدأت تسامر نعمان فى الأمر، وكأنها تمزج مسحوق الزنك والسلفا بأدوية الأمنيات العظيمة، حيث يرش المزيج بين وركى نعمان ليطارد الألم والصديد.

---

(١) هذا قول فيه مغالطة، إذ إن بعض أنداد نعمان دخلوا مدرسة المعلمين الريفية فور افتتاحها بالبندر ونتيجة لقيام أحد ذوى المناصب بحمل عدد من تلاميذ المدرسة الأولية إليها، وقد تخرج هؤلاء الأنداد معلمين يشار إليهم بالبنان.

مع انفلاق كيزان النخيل وانتشار رائحة الطلع بدأت بنت أخت أبى العيون تعود إلى رأس قائمة الترشيحات، فى الوقت نفسه الذى بدأت بواكير الجلد الجديد تظهر فيما بين وركى نعمان، أولاً لأن بنت أخت أبى العيون تقتنى نعجة خالصة لنفسها وتشارك إحدى عوانس غرب البلد فى نعجة أخرى، كما أن ذوى الدراية أشادوا مرارًا باتساع خبزها، إضافة إلى أن للبنت إخوة ذكورًا وأعمامًا ـ ذكورًا، مما يتيح للقوم اطمئنانًا إلى نوعية الإنجاب، ولا يمكن لنا التغاضى عما قيل عن حكمتها وأدبها ورزانتها وحسن إنصاتها، وتجنبها مشاركة لداتها فى العبث السرى الذى دأبن على ممارسته على شواطئ أبى نوى بعد الغروب أو أثناء تعاملهن مع عامل الصنبور العمومى، وثانيًا لأن جدها ـ أبو العيون ـ واحد من كبار المختصرين الذين فى حالهم، حيث لم يسمع عنه ما قد يخدش الأذن أو نرى منه ما قد يجرح العيون، وهى كلها أمور لها وزنها يمكن أن تطغى على ما وصلت به تلك المرشحة زوجًا لنعمان من إصابة صوتها بالخنة المكروهة والتى ـ فيما يقال ـ حالت دونها ونطق حرف (الراء) نهائيًا.

وبدأت الرسل تفاوض فى الموضوع، حاملة وجهات نظر تكاد ألا تتقارب، وعلى رأس الآراء المضادة للمشروع وجهة نظر أبى العيون نفسه، والتى أسرها لرفيق ثرثار متضمنة إحساسه بالحرج من تزويج حفيدته إلى سليل مختطف الدواجن الذى بدد جملاً ـ جملاً وليس معزة ـ وراء غازية غريبة ـ فاضطرت أم نعمان أن تكشف الغطاء عن مهزلة أبى العيون نفسه ذلك الذى ضبط مرتين متسلقًا

حائط معمل كتاكيت فى موسم ترقيد البيض، كما أن أبا العيون ـ نفسه أيضًا ـ قام بأعمال شائنة حينما اختلس بعض رغفان فرح ابن عبدالعال، هذا دون الإفصاح عما قيل من اشتراك أبى العيون فى التستر على خروف مفقود أو نقله الأخبار عن ممتلكات الآخرين للفلايت[1].

لكن الحكماء والمتعاطفين مع آل عبدالحافظ خميس وأبى العيون رفضوا توسيع دائرة الخلاف، وضربوا على أيدى مدمنى التسلى بالمهاترات، حيث قام الشيخ حسنى عبد النظير ـ الذى أكرمه الله فور ذلك فأصبح واحدًا من خيرة المؤذنين ومقرئى القرآن الكريم ـ بمقابلة أبى العيون على رأس الدرب، حيث حذره ـ جادًا ـ من استمرائه للقيل والقال، وأوضح له موقف نعمان من جميع أبعاده: طبيًا أو اجتماعيًا أو اقتصاديًا، فاضطر أبو العيون أن يعتب على أم نعمان لإصدارها مقولات ضده تعد فى حكم النسيان إن لم تكن افتئاتًا عليه، وكان ذلك يعنى أن الرجل يود المحاورة الجدية فى الأمر، وكان ذلك يعنى ـ أيضًا ـ أن الرجل قد وافق من الناحية المبدئية على الإصهار إلى آل عبدالحافظ خميس لما يعرفه عنهم من قيم وفضل ورجولة، وأن أى مباحث ستنصب على التفاصيل والتوقيت، لتنطلق الزغرودة الأولى فى الآفاق.

---

(١) الفلايت: شريحة من اللصوص يقيمون فى الخلاء والحقول، وقد أطلق عليهم هذا الاسم نتيجة للاعتقاد بأنهم لا بد قد أفلتوا من السلطات أو هربوا من السجون.

عندمـا فج[1] نعمـان متـحركًا خارج الدار فى رحلته الأولى لزيارة أبى العـيون كـان قد نضج واكتـسب خـبـرة وصـلابة ومـراسًا، حـمل منديلاً يحوى أرزًا وصـابونتـين ونصف أقـة فـول سـودانى وحـفنة كـراميلة، وقيل إنه ابتاع لعروسـه لحومًا أيضًا، غيـر أن المؤكـد أن صهره استقبله بترحاب فى أمسية يوم سوق، وأنه تعشى ـ دون أن يرى عروسه ـ قلقاسًا ولحم ضأن وخبزًا شمسيًا، ثم احتسى شاى المساء فى ردهة البيت؛ حيث لحقه من قومه أمه وأحد أقارب أمه واثنان من آل أبيه؛ وقد فتح الموضوع للمناقشة لتحديد المطالب، فترك أمر «النيشان»[2] لتقدير آل نعمان، على أن يكون المهر كالآتى:

١ ـ أربعون جنيهًا تدفع كلها فور انتهاء السدة الشتوية والتى تعنى الانتهاء من كمر سمك الملوحة.

٢ ـ (٦) كيلات قمح بويه أو (٨) قمح أسترالى.

٣ ـ (٥) أرطال من سمن الجاموس أو (٧) من سمن البقر.

٤ ـ ذبيحة ماعز أو ضأن.

وقـد قـرأ القـوم الفـاتحـة، مـرة من أجل أن يهـيئ لهم الله سـبل السداد، ومرة لاستعداء الله ضد من يخل بالالتزام، ومرة ـ ثالثة ـ

---

(١) فج: يفج ـ أى باعد ما بين ساقيه. (وقد درجت العامة على تحوير هذا العمل إلى فجح: يفجح) المعجم الوسيط ـ ج ٢ ـ ص ٦٨٠ ـ مادة (ف ج ح).

(٢) النيشان: مقدمة الاقتران بالعروس! وهذا التعبير مشهور فى الصعيد الأوسط ومناطق بحر يوسف، لكنى لم أعثر عليه سواء فيما ترجمه الزميل زهير الشايب من فصول كتاب (وصف مصر) أو ما ورد فى كتاب (المصريون المحدثون) لإدوارد وليم لين.

من أجل حماية المناط بشأنهما الأمر من الأمراض والأعداء والنيران والسم والحسد والجشع. بعدها تضاحك القوم وتساروا وتوسلوا لله أن يطرح فى الدنيا البركة.

وخلال الشهور التالية نجحت أم نعمان فى تدبير أمر النيشان، ذلك لأن ما يحويه النيشان يعد علامة على ما يكنه الفتى من إعزاز لعروسه، إن أمر المهر يخص العائلتين بقدر ما يخص العروسين، أما النيشان فهو السلوك الشخصى الرسمى المباح.

وفى ليلة نصف شعبان اصطحبت ـ وسط الزغاريد ـ أم نعمان صبيتين تحملان نيشان عروس نعمان المكون من:

١ ـ شال أحمر بورقته تم الحصول عليه من ملوى.

٢ ـ جورب لحمى وجورب أسود لزوم العزاء.

٣ ـ أربع قطع صابون نابلسى.

٤ ـ أربع حردات[١] على أربعة ألوان اثنتان منها بالقصب والترتر.

٥ ـ شبشب بوردة عمولة الداخل.

٦ ـ قطعتان من القماش الستان فرح قلبه من أغلى نوع.

٧ ـ نصف رطل حنة سويسى.

٨ ـ ثلاثة أقماع سكر.

٩ ـ ثلاثة مناديل أصباغ اشتهرت بتوريد الخدود عند حكها بالبشرة.

١٠ ـ زجاجتا شربات العنتبلى.

---

(١) الحردة واحدة الحرد أو الحردات: منديل للرأس.

[illegible]

[illegible]

[illegible]

فصل فى العرس

بمجرد الاطمئنان إلى خمول بنات الحور وعدم مهاجمتهن للقمر، وسداد آخر بند من بنود المهر، وانتهاء فرج الله الخياط من تركيب قطان الجلباب الفريسكا، ورحيل شهر طوبة؛ ومضىّ أربعين يومًا على وفاة أحد أقارب العروسة، والتيقن من عدم تعارض مواعيد الموانع الأنثوية مع أيام التزاوج، بدأ واحد من ذوى الحكمة فى إرشاد نعمان إلى أحد طرق إثبات الرجولة ليلة الزفاف، بعدها بساعات تمخضت أطراف العريس بالحناء، وشذب عيد المزين شعر نعمان وأظافره، وصحبه إلى ابن عبد الجيد للحصول على حجاب تأمين سلامة أدائه واجباته فى تلك الليلة العامة، ثم عرجا إلى مقامات الأمير سنان والخضر والصباغ وعبد اللطيف وزاوية الشيخ على التى فى طريق الطاحون، حيث تليت الفاتحة وتم التوسل بهم إلى الله والرسول وأهل بيته كى يطرحوا فى نعمان البركة والرجولة وفى بنت أخت أبى العيون الإنجاب والصلاح والتقوى وعدم الغواية

والرشاد - حينئذٍ - أصبح مناسبًا أن تتجه سالمة - أشهر مغنيات القرية فى ذلك العقد - إلى بيت العروسة لتشدو:

على جبين المجلع شفت هلالية

تنـــور الـزرع والخـيـرات والميــة

على جبين المجلع شفت طاقية

فيها جميع البنات من كل حبشية

ومارت الطبول متسلقة جو القرية، لتهتز الأبدان أمام الكوانين والأفـران ومـرابط البـهـائم، جـاذبة الصـبـيـان والبنات إلى بيت العروسة، ليتوازى معها طبل آخر كبير قادم إلى بيت أم نعمان، وفى أقل من الوقت الذى تستغرقه ركعة صلاة: تحلق الرجال فى شارع الحـدايدة، وانداحت الزغاريد من بقـعـتين: بيت أم نعـمـان؛ حيث ازدادت دائرة الرجـال فى باحـتـه اتسـاعـًا، وبيت أبى العـيون؛ حـيث انهمرت النسوة ذات العيون المطمورة أسفل ركام جميل من الكحل والخـدود المحكوكـة بمناديل الشـبـت الحـمـراء والكعوب المحكحكة بخـرفـشــة الطوب الأحـمـر الدامى، يشـاركن فى غناء سـالمة ذات الحنجرة العظيمـة التى انتفحت متدلية حول رقبتها مشيرة إلى آلاف أفـراح الدخلة والطهـور وأحكام البـراءة والخـروج من السـجن وإنجـاب الصـبـيـان وكسب قـضـايا الأرض وبقـر بطون الأعـداء والتعديد والتجنيز وعودة الغائبين.

قبل تحـرك آل عبدالحافظ خميس من أمام بيوتهم للذهاب إلى بيت أبى العيون مصطحبين الطبل الكبير: قاموا بخمس جولات من

التحطيب شارك فيها من الفوارس المبدعين: جاد جيد عبد النور ومحمود أبو دقن وعبد النظير إبراهيم، ومن ذوى أنصاف الدراية بالتحطيب: عبد الحميد عبد العزيز - أو أخوه أحمد - وواحد من بحرى البلد لا أذكر اسمه واثنان من قرى الغرب جاءا مصادفة للمطالبة على نقود فشاركا فى الاحتفال.

ثم لم تلبث الجموع أن تداخلت مفسحة الطريق لطابور مزغرد من نساء آل أبى العيون حاملات حاجة العروسة فوق رءوسهن والمكونة من مرتبة ومخدتين رأس ومخدة وصينية قلل ونصف قنطار من أوانى النحاس ودولاب بضلفتين ولحاف أخضر وسبت به ملابس العروسة مغطى بشالها وصندوق من الخشب المصنوع من صنبور مزخرف برسومات لطيور جميلة ذات لونين أحمر وأصفر يحيطهما - على جميع الجوانب برواز أخضر[1].

بمجرد إدخال حاجات العروسة بيت نعمان بدأت مسنات العائلة فى إبراز مهاراتهن فى تنظيم فرش العرسان[2] بحيث يصعب على الأصوات الخصوصية أن تتسل خارجًا، فى الوقت الذى يبدأ ركب

---

(١) (أ) تشتهر صنبور - من أعمال مركز ديروط - بالتخشيب وتجارة الردة وصنع المراكيب.

(ب) لم يرد فى حاجيات العروسة أى ذكر لسرير أو كراسى خيزران.

(٢) لابد من التنويه بالمهارات الفذة للمسنات فى تنظيم فرش الزفاف وتوليد النساء وقطع خلاص الولائد وتغسيل وتكفين الموتى، كما أن نظائرهن من الرجال يبرعون فى عمس وتوليد البهائم والكى بالنار وذبح الحيوانات المتردية ووصف طرائق تقوية الباء ومراقبة النجوم.

الرجال فى الصخب من جديد كى يتحرك بطبله وزمره لينتقلوا - وآخر النهار قد حل - إلى منزل آل العروسة كى يستأذنوا فى اصطحابها إلى عريسها.

أين نعمان؟ اغتسل نعمان مبكرًا - أى فى الظهيرة - حيث قام عيد المزين بتشذيب آخر ودقيق لأجهزة نعمان، ثم مر نعمان - يصحبه أحد كبار العائلة على بيوت القوم ليدعوهم إلى حفل زفافه الليلة والعشاء فى اليوم الثالث، ولا بد لنعمان أن يمر على الناس كى لا يعتب أحد عليه، بعدها يجب على نعمان أن يحضر ملابسه الجديدة من الخياط، لينجلى آخر النهار مهذبًا مشذبًا نظيفًا.

لا أعرف إن كان من الصواب أن نتابع العروسة أم نلاحق العريس، وخير لنا أن نتجمع مع قوم عبد الحافظ خميس فى حركتهم البطيئة من أمام بيوتهم حتى بيت أبى العيون مطبلين مزغردين؛ حيث قطعوا المسافة التى يقطعها الحاج زكى إبراهيم - الأعرج - فى نصف وقت احتساء كوب شاى - قطعوها فى وقت تروى فيه مساحة نصف فدان من ساقية محدودة القدرة، إذ كان القوم يتوقفون بين كل قصبة وأخرى ليعودوا للتحطيب والرقص والتغنى بفضائل العريس والتى تستبين منها أن نعمان قد سبب للأعداء الحسرة وللحساد الكمد لأعماله الخارقة فى القنص والصيد والطعان والمنازلة والحفاظ على الشرف والحنو على اليتامى وإعلاء كلمة الحق وعدم الرضوخ للظلم اقتداء بآل خميس جميعًا، بعدها بات على القوم أن يتغنوا بمحاسن العروس، ودون

إفراط فقد بدا أن العروسة تبارى القمر فى جمالها والشمس فى حرارتها والزبدة فى ريقها والعجين فى ليونة سرتها والغزال فى مشيتها والبقرة فى عيونها واليمامة فى خفتها وليلة القدر فى أرزاقها والناقة فى صبرها والقطيفة فى سحرها والنبقة فى رفعة أنفها والخوخة فى احمرار خدودها والبلطية فى مرونة حركتها والقطة فى أمومتها اقتداء بنساء أبى العيون جميعًا.

قليل من عروسات قريتنا من امتطين الجمل - بهودجه الشهير - فى الانتقال إلى بيت العدل، ونادرات من أتيحت لهن فرصة استخدام سيارات فى هذه المناسبة، ومعظمهن انتقلن من بيوت آبائهن إلى بيوتهن سائرات على الأقدام، حيث بدأت بنت أبى العيون رحلتها الأبدية وسط حشد من النساء، مرتدية فستانًا من الساتان الأبيض المشغول بالترتر والمقصب، وعلى رأسها الشال الأحمر الممنوح لها فى نيشان العريس، وفى قدميها الشبشب أبو وردة، وأمام الجميع جمع آخر من الرجال يحمل أحدهم كلوبًا اقترضوه من بيت محمد عثمان أو محمود على شناوى، هذا الكلوب الذى أضاء الزقاق والشارع والزقاق والشارع ثم زقاق آل نعمان، حينذاك، ووسط انهمار الزغاريد، أدخلت العروس بيتها الجديد، وتقدمت من العتبة بقدمها اليمنى، فقامت أم نعمان بغسلها بماء الورد المستجلب من عبد المنعم الحباك، ثم حملت إلى حجرة نعمان، وأغلق الباب عليها ومعها الداية وإحدى عجائز آل أبى العيون وأم نعمان، ووقف عبد النظير بخشونته وجسده الفارع على الباب ليحول بين الناس وبين محاول الدخول، حينئذٍ بدأت الداية عملها، خلعت العروسة عن شالها

وبعض أرديتها التى تعوق الحركة، وأمرت المرأة المسنة أن تجلسها على حجرها وأن تلف ذراعيها حول إبطى العروسة وحول فخذيها لتعجزها عن المقاومة، وفرشت أسفل وركى العروسة العاريتين شوالاً، وأمرت من يقف بالباب بالإذن للعريس بالدخول.

وظهر نعمان فى الوقت المناسب تمامًا، شرخ جموع الأطفال والنساء وبيده المصبوغة بالحناء خيزرانة، وانفتح الباب، ثم انغلق، وبدأ الرجال يحدثون ضجة صارخة بالخبط على الباب، وامتدت ذراع نعمان ذات الإصبع المهيأة، واخترقت الإصبع موضع العفة فى بنت أخت أبى العيون، اقتحمت الإصبع المشرعة طبقة الألم الدموى الشريف، لتصرخ العروسة، لكن الداية تنتبه إلى وجل العريس، فتسبه وتمسك بإصبعه وتعيد من جديد الاختراق، فينبثق الدم العظيم معلنًا انتهاء الجزء الأول من حياة نعمان، ومؤذنًا للقوم المنتظرين بإطلاق أعيرتهم النارية، والمنديل الدموى يلقى فوق رءوس الحشد حاملاً فى ثناياه حسن الاختيار، ليتحرك القوم بعدها بنعمان إلى ترعة بحر يوسف ليتسنى للعريس أن يلقى بالطوبات السبع إلى النهر، والسعادة تغمر شاطئ بحر يوسف، وأحد السفراء يتحرك فى الوقت نفسه مقتربًا من مجلس قيادة الثورة، ليسلم إنذارًا شديد اللهجة طالبًا من جمال عبد الناصر أن يسحب جيشه من حول القناة أو يسمح لبريطانيا وفرنسا بضرب المطارات والمنازل بالقنابل.

الفهرس

أدب

تعنى بنشر النصوص المتميزة فى الشعر والنثر والنقد الأدبى وتاريخ الآداب من أجل إثراء خبرة القارئ وتنمية وعيه الأدبى والسعى إلى نشر القيم الجمالية التى تحقق المتعة والفائدة فى آن.

التاريخ السرى لنعمان عبدالحافظ

نعمان بعد الحافظ، الشخصية الجنوبية الأسطورية التى نحتها الأديب الراحل محمد مستجاب، مصطنعًا لها تاريخًا محكيًا منذ مولده العجائبى مرورًا بختانه الغامض وطفولته الشائكه وصولا إلى ليلة عرسه المشهودة، معنونًا كل مرحلة من مراحله بكلمة موروثة من كتب التراث «فصل فى»، لكأنه يقوم بعمل تحقيق علمى عن شخصية تراثية، فينفض عنها غبار التراكم ويجلى شخصانيتها ويعيد اكتشافها، متوسلاً بلغة توليدية أسرة وسرد فاتن.

محمد مستجاب

الأديب محمد مستجاب، أحد أبرز كتاب الستينيات ولد بمحافظة أسيوط عام ١٩٣٨ وامتهن أكثر من مهنة إلى أن استقر موظفًا بمجمع اللغة العربية، أصدر عددًا من الأعمال القصصية والروائية من أهمها: «ديروط الشريف» و «من التاريخ السرى لنعمان عبد الحافظ» و «القصص الأخرى» و «قيام وانهيار آل مستجاب»، حصل على جائزة الدولة التقديرية فى الآداب، توفى عام ٢٠٠٥.

ISBN# 9789772070510



جنيهان

